من الدراسات النفسية
فى
التراث العربى الإسلامى

دكتور
نبيه إبراهيم إسماعيل
أستاذ الصحة النفسية
كلية التربية - جامعة المنوفية

إيتراك للنشر والتوزيع
طريق غرب ألماظة - مصر الجديدة

رقم الإيداع
٢٠٠١/١٨٤٣٩
الترقيم الدولى I.S.B.N.
977-5723-61-2

ايتــــراك للنشــــر والتــــوزيع
طريق غرب مطار ألماظة عمارة (١٢) شقة (٢) ص.ب : ٥٦٦٢
هليوبوليس غرب – مصر الجديدة
القاهرة ت : ٤١٧٢٧٤٩ فاكس : ٤١٧٢٧٤٩

إهـــــــــداء

إلي كل من يتطلع إلي غد أفضل علي أساس قوي متين ..

إلي كل من يحب الإنســـان أيا كان هــذا الإنســـان ..

أهدي هذا العمل .. داعيا الله سبحانه وتعالي أن ينفع به الناس جميعـــا.

أ.د/ نبيـــه إبراهيم إسماعيل



وما من كاتب إلا سيفني

ويفني الدهر ما كتبت يداه

فلا تكتب بيدك غير شيء

يسرك في القيمة أن تراه



مقـــدمة:

إن أى مجتمع يتطلع إلى تغيير ظروفه ، وأوضاعـــه إلـــى مـــا هـــو أفضل ، أو يريد أن ينتقل من طور حضارى إلى طـــــور حضـــارى جديـــد متميز؛ فإنه من الضـــرورى ، بل مـــن الـــلازم أن يبـــدأ بدراســـة واقعـــه الحضارى والثقافى، وفحص ماضيه فحصاً دقيقاً ، وذلك لتحديد مســـتقبله على أساس صحيح سليم، ولا يمكن أن يتحقق التطور - الذى تشـــرأب لـــه الأعناق ، وتحلم به الأجيال - الذى يتم عن طريق النمو المطرد المبنى على أساس قوى متين دون الأخذ فى الاعتبار بعد الماضى ، ودراسة حضارتـــه ، لأن أى نوع من أنواع التطلع والطموح لابد أن يكون له أساس يمكنه مـــن الوصـــول إلى تحقيقه .

ومن الملاحظ أنه عادة ما يبدأ هذا الأمر بإعـــادة النظـــر هـــذه ، فيحدث ما نطلق عليه الصراع بين القديـــم والحديـــث ، أو بيـــن الأصالـــة والمعاصرة . ويؤكد كثير من المفكرين أن هذا النوع من الصـــراع حتمـــى الحدوث ، ويثبتون صحة وجهة نظرهم، بواقع التطور الحضارى لكثير مـــن المجتمعات. ويشيرون إلى أن السبب فى مثل هـــذا الصـــراع يرجـــع إلـــى وجـــود اختلاف كبير بين الانتقالات الحضارية من مجتمع إلى آخر . الأمـــر الذى أدى إلى حتمية الصراع السابق الذكر .

والدارس للتاريخ يجد أنه يحدثنا عن هذا الصراع ، وكلنا يعـــلم مـــا حدث من ذلك فى مختلف نقلات الحضارة العربية الإسلامية فى عصورهـــا المتعددة ، ونجد مثل هذا النوع مـــن الصـــراع فـــى مختلـــف التطـــورات

الحضارية فى المجتمعات الأوربية . ونلاحظ - أيضاً - أنه يختلف مدى حدة الصراع من بيئة حضارية إلى بيئة حضارية أخرى ، حسب ما لدى أفراد المجتمع من المستوى المعرفى والثقافى ، والنمو المطرد على أساس ثقافى صحيح .

كما أنه يبدو أن ما يحدث من صراع فى أيامنا هذه بين القديم فى حياتنا الثقافية والفكرية المعاصرة ، ليس صراعاً بين فكر عربى اسلامى قديم ، وفكر عربى اسلامى حديث ، إنما هو صراع بين التراث والفكر الغربى المعاصر ، وبين فكرنا العربى الاسلامى ، وهو صراع دعت إليه الظروف التى مر بها العالم العربى والاسلامى . بل أدت إلى استمراريته ، ونموه وتطوره ، بهدف إفهام أجيالنا بان العودة إلى تراثنا العربى الاسلامى يعد تخلفاً وجموداً فكرياً . وفى الوقت نفسه نجد أن ظروف العالم الغربى قد دعته إلى الانطلاق والتحرر ، بما أدى إلى حدوث تقدم مادى ملموس . وهذا التقدم لم يلمسه عالمنا العربى الاسلامى فحسب . بل سعى الجانب الغربى إلى غزو عالمنا الثقافى والفكرى به ، وأصبح له تأثير شديد على عقول أبناء الأمتين العربية والاسلامية ، إلى الحد الذى أثر تأثيراً كبيراً فى كل مايصدر عنا من أنماط السلوك البشرى. بما يدعو ، ويساعد على محو الأصول الثقافية والفكرية . أى القضاء على أصالتنا ، وما أسفرت عنه من تميز الشخصية العربية الإسلامية عن غيرها من شخصيات العالم .

وقد أسهم فى تعزيز تأثير الحضارة الغربية على سلوك أفراد المجتمع

العربى الاسلامى ما وصل إليـــه الغــرب مـــن قـــوة اقتصاديـــة وعلميـــة وتكنولوجية، فضلاً عن نفوذ القوة العسكرية والسيطرة السياســـية التـــى ظهرت فى الآوانة الأخيرة فى هذا العصر ؛ نـــاهيك عـــن تطـــور عمليـــة الاتصالات ، وإمكانية رؤيته فى مختلف القنوات الفضائية ، وما تبثه مـــن أطر ثقافية مختلفة ، ومتباينة عن نوعية وثقافة الحضارة الغربيـــة. ممـــا أدى إلى عمق تأثير هذه الثقافة بعد غزوها لكثير من دولنـــا ومجتمعاتنـــا. الأمر الذى أتى بثماره ؛ بإعجـــاب أفـــراد مجتمعاتنـــا بالنمـــاذج الثقافيـــة والفكـــرية التى تبثها هذه الدول عبر القنوات الفضائية إلـــى الحـــد الـــذى جعلهـــم لا يدركون ماعداه من جوانب ثقافية وفكرية أصيلة أصالة الزمـــن ، وعميقـــة عمق التاريخ .

وظل هذا الإبهار بالثقافة الغربية ، والإعجاب بها إلى الحد الذى خيـــم على كثـــير من عقول أجيالنا ، فأصبحوا غير قادرين على رؤية ما لديـــهم من تراث كان سبب تقدم ونمو هذه المجتمعات فى فترة زمنية ســـابقة . بل أنه لم يعد لديهم الدوافع القوية للبحث والتنقيب عنه فـــى مختلـــف الكتـــب والمراجع العربية والإسلامية التى خلفها أجدادنا العلمـــاء ، والتى شـــــهد لهـــم الغرب بنبوغهم ، وابتكاراتهم . ونتيجة لهذا الإنبـــهار فـــإن أفـــراد المجتمع لا يستطيعون التمييز بين ما هو غث وثمين من هذه الثقافة ، ومـــا يصلح لهم ، وما لا يصلح لهم . حيث تنعدم الرؤية الصحيحـــــة ، وعـــدم القدرة على الانتقاء والاختبار لكل ما يسهم فى إحداث التـــوازن فـــى نمـــط شخصيتهم على أساس من ثقافتهم الأصيلة .

إن المتتبع للمجتمعات التى انبهرت بالثقافة الغربيـــة ، نجـد أنــهم لايحترمون ، ولايقدرون ثقافتهم . بل ويقللون من قيمتها وأهميتها . ومـن هنا يشعرون بضآلتهم أمام الثقافة الغربية . الأمر الــذى يدعوهـم إلــى محاكاتها دون إمعان النظر فيما يفيدهم منــها أو يضرهـم ، وكذلـك دون النظـر فى نوعية القيم المصاحبة ، والمكونة لهذه الثقافة . وعندئذ تصبـح هذه الثقافة - الغربية ، والبعيدة وغير الملائمة للاتساق مع ثقافتنا - إطـاراً مرجعياً لكثير من أنماط سلوكنا ، وقراراتنا ، وما نصدره من أحكـام علــى مفاهيم التقدم والرقى ، أو التخلف والرجعية . مع أن المفـروض ، ومـا ينبغى أن يكون الإطار المرجعى للحكم على الثقافة الواردة من أية جهة مـن جهات العالم المحيط بنا هو تراث وثقافة الأمة العربية الإســلامية ، حتــى يمكن انتقاء الجديد النافع، والجيد الذى من شأنه أن يسهم فى نمو وتقـدم الفكر العربى الإسلامى .

إن الذى لاشك فيه أن أى نمو أو تقدم لا يمكن أن يتم عن طـــريق إتاحة الفرصة للتأثير والتأثر بيـن الحضـارات المختلفـة ، وأن الإنســان بقدراته وإمكاناته العقلية ، وحسـه المرهف الدقيق يستطيع أن يـدرك أن هـناك قدرا مشتركاً بين الناس جميعاً سواء كـانوا فــى أمتنــا العربيــة الإســلامية ، أو فى أمم الغرب ؛ وأن مثل هذا القدر المشترك هــو الــذى يتيح إمكانية تبادل المعارف ، وإحداث الاتصال ، وإمكانية الاقتباس ؛ حيث إنه لا توجد حضارة فى العــالم كتب لها البقاء والاستمرار والنمــو ، إلا إذا كانت قادرة على التأثير والتأثر .

والمدقق النظر فى حضارات العالم الأصيلة ؛ يجد أنها قد اســـتطاعت أن تنتقى ما ينبغى ، أو ما يسمح به لإحداث التأثير فى حضارتها ، وأنـــــها كانت على يقظة تامة مما لا ينبغى أن يسمح به ، أو يمر بأى مدخل مــــن المداخل ، أو صورة من الصور حتى لا يكون التأثير سلبياً. وعندئذ نلاحـــظ أنها قد استوعبت باقتدار ما وصلت إليه الحضارات الأخرى من إنجـــازات - ليس فقط لتقف عنده - بل لتتجاوزه إلى إنجازات تنبىء عن ذاتيتـــها التـــى تميزها عن غيرها من الحضارات . حيث إنه لا يمكـــن - بأيـــة حـــال مـــن الأحوال - أن تتعدى الحضارة المستوعبة إلى الإنجاز ، والابتكـــار والتمـــيز إلا إذا كانت لها نظرة ذاتية ، معتمدة على ما لديها من أسس ثقافية عميقـــة أصيلة ، ذات نظرة ناقدة فاحصة لكل ما يرد عليها من حضارات غيرهـــا . فضلاً عن اعتمادها على الموضوعية .

وعلى أساس ما تقدم من أصول يمكن لحضارتنا أن تدرك قيمـــة كـــل بعد حضارى ، أو ثقافى وتأخذ منه ما يناسبها ، ومـــا يتســـق ومكونـــات حضارتها الذاتية حتى لا يكون هناك تناقض أو تضارب فى نمط شخصياتها، والمتعمق فى دراسة حضارتنا العربية الإسلامية . يجد أن تراثـــــنا غنـــى بهذه المكونات انتقتها عقول أبناء أمتنا الأمينة الواعية ، المدركـــة للعـــائد الفكرى من اقتباس هذه المكونات لتحقيق مستوى أفضل من النمو والتقـــدم لحضارتنا . ولهذا نجد أن الحضارة العربية الإسلامية كانت قـــادرة علـــى مواكبة التقدم الحضارى الحادث فى مختلف حضارات العالم .

ويحدثنا التاريخ عما تقدم من قدرات الحضـــارة العربيـــة الإســـلامية

عندما استوعبت باقتدار ما ينفعها من غيرها - مع الحفاظ على نمط شخصيتها - من الحضارة الإغريقية اليونانية دون المساس بذاتيتها المتفردة . وهذا من شأنه أن يجعلنا نثق فى تراثنا وثقافتنا ، وما تركه الأجداد من عمق حضارى ، لا يخشى عليه من عملية الاتصال بغيره من الثقافات الأخرى أو التأثير على الذاتية التى يتميز بها ، ومن هنا لا ينبغى أن نصاب بالانبهار حال قراءتنا لموضوع جديد ، ولا نعتمد اعتماداً أساسياً على التراث الأوربى فى كل مجالاتنا العلمية ، والثقافية والفكرية، ذلك لأن تراثنا يحتوى على كثير من أسس العلم والمعرفة . بل ويوجد به فكراً جديداً متميزاً نظراً لانتمائه للفكر الاسلامى ، ولهذا لا غرو أو عجب أن نجد فى تراثنا كثيراً من البحوث والدراسات النفسية .

إن التراث الإسلامى ليس تراثاً جامداً أو للعرض فقط كالتراث الفرعونى أو الصينى ، أو التراث الهندى أو البهلوى إلى غير ذلك من المواريث الثقافية التى فقدت فاعليتها فى الحياة المعاصرة ، وإن ظلت ثمارها مكتوبة ، ومدروسة ، ومقروءة ومسموعة إلى اليوم . لأن التراث العربى الإسلامى أشد ارتباطاً بحياتنا ، وأكثر استمرارية وتأثيراً فى مختلف مجالات الحياة فى عصورنا المختلفة ، وقد اصبح كذلك من خلال قناتين كبيرتين عميقتى التأثير فى واقعنا الذى نعيشه كل يوم؛ وهما العقيدة الدينية، بتأثيرها الواضح الجلى فى كل ما يصدر عنا من أقوال وأفعال وسلوك ، ولغتنا العربية التى تعتبر وعاء الفكر ، ووسيلة التفاعل والاتصال والتفاهم بين الشعوب العربية وكثير من الشعوب الإسلامية .

وإذا كان التراث العربى والاسلامى يتميز بهاتين الركيزتين ، وينطوى على ذلك الفكر النامى المتقدم الذى يبدو جلياً فى كثير من ميادين العلم والمعرفة ، وليس فقط فى مجال الدراسات النفسية . فإن هذا الثراء المتعدد يجعله أجدر من أى تراث آخر للاعتماد عليه ليكون منطلقاً فكرياً متميزاً فى مجال علم النفس ، ذلك لأنه يعبر بصدق وأمانة ، وعمق عن واقع نفسية الإنسان العربى والمسلم المؤمن بالله الواحد الأحد ، والذى ينطلق من هذه العقيدة الأبدية ، ذات المنهج الواضح المعالم ، والمحدد الأبعاد والأهداف.

بالإضافة إلى ما تقدم ، فإن المتتبع للدراسات النفسية فى تراثنا العربى الإسلامى ، يجد أنه قد تناول عديداً من الموضوعات ، والقضايا ، والمشاكل النفسية - منذ زمن بعيد - التى درست وبحثت فى مؤلفات الغرب وننظر إليه على أنه كشف جديد ، وفكرة متميزة ، وإضافة لا مثيل لها، مع أن التراث العربى الاسلامى يشير إلى سبقه وريادته فى هذا المجال. فضلاً عن دقة تناول الفكر العربى الإسلامى لكثير من المصطلحات المستخدمة فى مجال علم النفس ، والتى تشابهت - إلى حد كبير - مع ما وصل إليه الفكر المعاصر . كما أن الفكر العربى الإسلامى يتميز فى أى مجال من مجالات العلم والمعرفة بأنه غير مكرر ، بل نجد أنه يتجدد فى كل مرحلة زمنية تبعاً لما يحدث من تغيير ، وتبديل ، وتعديل ، وزيادة فى كل من الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى يمر بها عبر الزمن ، على أساس الفهم الواعى للمفكرين العرب المسلمين لأن التكرار لا يحدث نمواً ، ولا تقدماً .

هذا ؛ ولابد من الإشارة هنا إلى أنه ليس من الطبيعى أو المنطقى أو المعقول أن يتطابق ما توصل إليه علماؤنا المسلمون فى مجال الدراسات النفسية . مع ما توصل إليه الفكر الغربى تطابقاً تاماً ، ذلك لاختلاف المنحى والمنطلق الفكرى والعقائدى والفترة الزمنية الذى أنجز فيها مثل هذا الفكر ، لأن أسباب هذا الاختلاف يجعل التطابق أمراً بعيداً . وإن كانت هناك بعض الموضوعات التى يظن أنها تتطابق إلا أن هذا الظن مبنى على أساس النظرة السريعة غير المتأنية ، ولذلك ليس من المنطق الصحيح السليم أن نعقد مقارنة لنبرز الفكر الذى نقله إلينا التراث العربى الاسلامى فى مجال الدراسات النفسية - على فكر التراث النفسى الغربى . إنما القصد تنبيه الأذان والادراك إلى ما فى التراث العربى الإسلامى من كنوز مازالت فى بطون المؤلفات والمراجع العربية الإسلامية . والتى تمت بصلة وثيقة بمجال الدراسات النفسية ، وإن لم توضع تحت هذا التصنيف فى زمن تأليفها .

ولا غرو فى هذا ، لأن القرآن الكريم قد نزل محدثاً عقل ونفسية الإنسان ، وأنزل على الرسول " ﷺ " ليغير اتجاهات الناس من عقائد وضيعة موروثة عبر مئات السنين إلى عقيدة التوحيد بالله الواحد الأحد الفرد الصمد ، وأن قدرة الرسول "ﷺ" على تحقيق هذا من خلال القرآن الكريم ؛ إنما تدل دلالة واضحة بينه لاشك فيها على أن ما تركه الأجداد والآباء من تراث دينى لا يخلو أبداً من عديد من الدراسات فى مجال علم النفس سواء كانت مرتبطة بالجانب العقلى أو الجانب النفسى .

هذا ؛ ومن يدقق النظر فى الأحكام الشرعية ، يجد أنـــها تضـــع فـــى اعتبارها الأســـاس النفسى حال إصدار الحكم . حيـــث يعتـــبرون شـــروط التكليف الأساسية كالبلوغ؛ وما يتضمنه من مراعاة مستوى النضج وعلـــم بالتكليف ، وفهمه ، وضرورة الالتزام بالنظم والقوانين والقواعد المنظمـــة للحياة كما أرادها الله سبحانه وتعالى . والعقل ، وما يتضمنه من القـــدرة على الإدراك الواعى السليم لمناط التكليف الذى أقرته الشريعة الإسلامية .

كما أن الأساس النفسى يشكل ركناً أساسياً فى بحوث أصـــول الديـــن والعقيدة ؛ ذلك لأن مختلف المسائل ذات الارتباط بالاعتقـــاد ؛ مـــن إيمـــان وكفر، ونفاق متعلقة تعلقاً كبيراً بالجانب النفسى والعقلى للإنســـان . وقـــد بينت قصص إسلام الصحابة - رضوان الله عليهم - الأوائـــل أن أحوالـــهم النفسية ، ومستوى قدراتهم على الادراك والفهم كانت ذات أهميـــة كبـــيرة عند إقبالهـــم على الإسلام .

والقارئ لكتب التفسير والأدب ، والسلوك ، يرى أنها تحليلات دقيقـــة للنفس البشرية فى مختلف أحوالها ، وظروفها ، وتقلباتها ، وتشير كثـــير من كتب التراث العربى الإســـلامى ككتب ابـــن تيميـــة ، وابـــن القيـــم ، والحســـن البصـــرى ، وغيرهـــم إلى هـــذا الجـــانب . حيث نجـــد أنهـــم قد تركـــوا لنا كماً هائلاً وكبيـــراً فى مجـــال علم النفـــس فـــى معظـــم كتبهم التى ألفوها .

ومن يراجع كتب شرح الحديث النبوى الشريف يجد أنها تشـــير إلـــى تحليل دقيق للنفس الإنسانية ، وتوضح نوازعها ، وكيفية تقويمها ، وفـــى

الوقت نفسه تقدم نماذج مختلفة ومتعددة للنفس الإنسانية سواء كانت اعتنقت الإسلام أم لا .

ولهذا فإن ما أقدمه فى هذا الكتاب يعد دعوة لكل المشتغلين فى مجال الدراسات النفسية إلى البحث فى التراث العربى الإسلامى ، بهدف كشف واستخراج مافيه من أصول هذه المعرفة التى تتفق ومنهج العقيدة الإسلامية ، والتى ينبغى أن تنال اهتمام المشتغلين فى علم النفس ، وأن تكون موضع دراسة وبحث وتقدير واحترام ، حتى يمكن الوصول إلى الأسس التى تعيننا على الانطلاق فى مجال البحث على أساس من الفكر الإسلامى الأصيل الذى أسهم فى كل من مجالات العلم والمعرفة ، واستمد منه الغرب أسس البحث العلمى ، والالتزام بالدقة الفائقة فى مجال الدراسة فى مختلف ميادين المعرفة .

كما ينبغى ألا ينظر إلى هذا التراث على أساس أنه معرفة متخلفة فى هذا المجـالناشر : مكتبة الأنجلو المصرية ، أو أنه يمثل أثراً من الماضى أنقضى وقته ، وانقطع أثره . بل يجب أن ينقب عنه بفكر واع ، وإيمان عميق لاحيائه إحياءً لنفوسنا ، وتقديراً لعقولنا ، واحتراماً لأنفسنا ، وإثباتاً لذواتنا . ولهذا يجب ألا ننظر إليه بدافع الحماس الدينى الطارىء الذى سرعان ما يزول بزوال المؤثر. بل لابد من النظر فيه بعمق المؤمن بأنه يحمل فكر ، وقيم ، وأنماط سلوك يمكن أن تحقق لحياتنا أنسب الأجواء والأساليب التى تعيننا على مسايرة واقعنا المعاصر دون تخبط أو انحدار يؤدى بنا إلى سطحية وانحطاط الفكر. ذلك

لأنه كلما كانت جذور الإنسان الفكرية ثابتة ، مكنته من الانطلاق السليم الذى يتحقق عن طريقه أفضل ما يمكن أن يتمناه الإنسان فى حياته المعاصرة .

ومن أجل هذا نجد أن كثيراً من المفكرين الذين درسوا فى الغرب يقدمون النصح بضرورة إعادة النظر إلى التراث العربى الإسلامى بحيث تكون هذه النظرة عادلة فلا تكون " نظرة*القاضى إلى المتهم ، أو نظرة الطبيب إلى المريض . بل يجب ان تكون نظرة متسمة بالإنصاف الذى هو أساس الاستجابة الصحيحة "، وهذا ما دعانى أن أكتب مقدمة هذا الكتاب - على هذا النحو - تنبيهاً ، وبنياناً ، ودعوة لجميع المشتغلين فى مجال علم النفس لتوجيه أنظارهم ، وفكرهم إلى تراثنا العظيم ؛ ليكون أساس الانطلاق الفكرى ، نبدأ منه لتأصيل فكرنا النفسى ، وننتهى إليه مسجلين هذا الفكر مهما كلفنا هذا من جهد ووقت ، ومعاناه . أما أن نبدأ من غيره ، وبدونه لنفرض عليه ، أو نلوى فكره لنثبت أنه أسبق فى مجال علم النفس ؛ فهذا ما لا يفيد ، أو يبنى ، أو يسهم فى تقدم هذا العلم .

وليس معنى ما تقدم أن نغلق عقولنا على فكرنا وحده ، ونرفض فكر الآخرين فى مجال علم النفس ، مكتفيين بما لدينا . بلى يعنى أن ننطلق منه، لننتهى به مؤشراً لأصالة فكرنا ، إثباتاً لذاتنا ، مع ضرورة الاطلاع على فكر الآخرين ، ودراسته دراسة عميقة متأنية ، متتبعين مراحل نموه

---

* عبد الحكيم حسان . الدراسات الإسلامية فى التراث العربى ، بحث ألقى بالنادى الثقافى بمكة المكرمة .

وتطوره، وأن نأخذ منه ما يمكن أن يفيد فى تنمية فكرنا النفسى بما لا يؤثر على أصالته وتميزه . وليس هذا بغريب على علمائنا فى مختلف ميادين المعرفة ، لأنهم قد استعانوا بمواريث ثقافية أخرى على أساس منِ الفهم الحر، والاختيار السليم ، والانتقاء الجيد ، ولم يكن موقفهم يتسم بالرضوخ أو الاستسلام لثقافة غيرهم .

وقبل أن انتهى أريد أن أعيد ما ذكرته فى بداية المقدمة ؛ وهو أن تراثنا العربى الإسلامى يزخر بكثير من الدراسات النفسية التى يجب أن نقبل عليها بعقول متفتحة واعية مدركة عما نبحث وما نريد ، مستخدمين فى ذلك أحدث مناهج البحث العلمى ، بشرط ألا ندس فيه من المصطلحات الحديثة التى لا تتفق ومنطلق الفكر الإسلامى التى قد تحدث خللاً فى تفكيرنا ، وتبعدنا عن ديننا ، وتؤثر على شخصيتنا تاثيراً سلبياً . بل قد تؤدى إلى فقدنا لشخصيتنا الأصيلة المتميزة .

من الدراسات النفسية
في
التراث العربي الإسلامي

الدراسة الأولى



تقديم :

من الأمور التى دعت الباحث إلى محاولة بيان وتوضيح ما ورد فى كتاب تهذيب الأخلاق " لمسكويه " ما ذكره فى هذا الكتاب من أنه لابد من التعرف على نفوسنا ؛ ماهى ؟ ولأى شىء هى ؟ ولأى شىء أوجدت فينا ؟ وهو بذلك يعنى البحث فى كنه النفس وحقيقتها ، والتى تعتبر محوراً أساسياً من محاور علم النفس . وهو فى بحثه هذا يسعى إلى التعرف على أسباب تزكيتها ، وإخفاقها وضعفها . فضلاً عن معرفة العوائق التى تحول دون كمالها .

كما أنه يسعى - أيضاً - إلى معرفة الإنسان وذلك عن طريق دراسة فعله . حيث يرى أن فعل الإنسان فعلاً مركباً ، وأن الشخصية الإنسانية ليست شخصية بسيطة ، لأنها نتاج عدد من الأبعاد والمتغيرات التى قد تسهم فى تكوين جوهره ، وبالتالى تساعدنا على معرفة حقيقة معدنه ، وعندئذ نستطيع أن نفهم الإنسان فهماً حقيقياً عن طريق مختلف ما يصدر عنه من أفعال وسلوك .

هذا ؛ ويرى " مسكويه " أن أفضل الناس أقدرهم على إظهار فعله الخاص. أى الفعل الذى يتفق وجوهره المتميز عن غيره من الناس ، والذى يلتزم به بغير تلون ، أو إخلال فى وقت دون وقت آخر ، وهو فى حديثه عن الشخصية الفاضلة من الناس ، وما يميزها من سلوك وأفعال تعينه على معرفة الشخصية - معتمداً فى ذلك على بيان الشخصية بنقيضيها- يبين أن كمال الشخصية يعتمد على عاملين أساسيين يطلق

عليهما - كمالان- أحدهما يستمد من القوة العالمة ، والآخر من العاملة؛ حيث إن القوة الأولى تدفع الإنسان إلى اكتساب المعارف والعلوم ؛ أما الثانية تدفع الإنسان إلى تنظيم الأمور وترتيبها ، وهو يعتمد فى فهم هذا على ما قدمه كثير من الفلاسفة الذين تناولوا بالنظر والفكر هذه النقطة ، وتحدثوا عن هذين العاملين من الكمال .

ويحدد " مسكويه " الهدف من كتابه - تهذيب الأخلاق - (بأن نجعل لأنفسنا خلقاً تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة) وهى بذلك تكون (سهلة علينا لا كلفة فيها) ومن هذا يفهم أن " مسكويه " قد اهتم بالسلوك الصادر عن الإنسان ، وهو يرى أن الأفعال والسلوك السوى الصحيح لا يمكن أن يتم إلا بترتيب تعليمى . أى معرفة ملكاتها ، وقواها ، وغايتها ، التى استطاع بها الإنسان أن يصل إلى المكانة والرتبة العالية .

هذا ؛ وهو يسعى - أيضاً - إلى محاولة التعرف على العوامل التى تعوق وصول النفس إلى هذه المكانة العالية ، وهو بذلك كله يتصدى لدراسة الإنسان ، عن طريق دراسة كل ما يصدر عنه من أفعال وأقوال وأعمال .

تعريف بمسكويه :

هو أبو على أحمد بن محمد بن يعقوب الملقب " بمسكويه " ، وأصله من الرى ، وقد سكن أصفهان ، واشتهر بالخازن ، لأنه كان أميناً على خزانة كتب ابن العميد ثم كتب عضد الدولة ، ابن بويه ، وقد توفى فى اليوم التاسع من شهر صفر عام (٤٢١هـ الموافق ١٠٣٠م) .

وقـد أشـار عبـد العزيـز عـزت[1] (١٩٤٦) أن مرجوليـوث Margoliouth وهو أحد الباحثين الذين تصـدوا لدراسـة مؤلفاتـه قـد تمكن من إثبات عام مولده حيث اشار إلـى أنـه ولـد عـام ٣٣٠هـ ، وإن كان ذهب بعـض الباحثين إلى أنـه ولـد عـام ٣٢٥هـ، ونلاحـظ أن الفـرق بيـن الزمنين بسـيط . ممـا يشـير إلـى إثبـات أحدهمـا دون الآخـر .

ويعتبر " مسكويه " من فلاسفة القرن الرابع الهجرى ، حيث كان مـن العلماء الراسخين الآخذين للعلوم من مصدريها ، النقل والعقل ، وقـد قـرأ كثيراً من المؤلفات اليونانيـة ، وخاصـة أرسـطوطاليس ، كمـا اشـتغل بالكيمياء، والفلسفة والمنطق ، والأدب ، والتاريخ ، وقـد قـرن الحكمـة بالشريعة فى كل تقريراته العلمية . حيث كان كثيراً مـا يطلـب الرجـوع للشريعة .

وقد أجمع كثير ممن اطلعوا على مؤلفات " مسـكويه " أنـه يتمـيز بمفرداته اللطيفة ومعانيه الجيدة المرتفعة ، وقدراته على النقـد ، وأن لـه مشاركات فى العلـوم الحديثـة والقديمـة ، ومنـاظرات ، ومحـاضرات ، وتصنيفات عديدة فى العلوم .

وقد ألف كثيراً من الكتب منها ، كتاب آداب العرب والفرس ، والفـوز الصغير فى أصول الديانات ، وفوز النجاة ، وكتـاب السياسـة ، ومختـار الاشعار ، ونديم الفريد ، ومختصر فى صناعة العدد ، وكتـاب الأشـربة ،

---

[1] ابن مسكوية : فلسفته الأخلاقية

وتجارب الأمم ، وكتاب العيون ، والحدائق فى اختبار الحقـــائق ، وكتـــاب أنس الفريد .

ومن الكتب التى لها صلة مباشرة بدراسة النفس ، كتاب " فى اللـذات والآلام" والذى يرى فيه أن اللذة راحة من ألم ، وأن اللذات كلها عند الملتـذ تحدث بعد آلام معينة تلحق بالإنسان . أى أن اللذة تعتبر خلاص من أذى .

ويشير فى هذا الكتاب إلى أنواع اللذات ، كلذات الجســم التى تتمثــل فيما يشبع الحاجات الأولية للإنسان ، كالأكل والشرب والجنــس . ولـــذات العقل والتى تتمثل فى الإدراك العقلــى للإنســـان والـــذى عنــده الإدراك الأكمل له .

كما تشير المؤلفات التى تناولها " مكسويه " بالدراسة والبحث أن لـــه رسالة فى "جوهر النفس والبحث عنها " وفيها يكتب عن أهمية النفس فـــى سائر الكائنات المختلفة ، على أساس أنها سبب الحركة والحياة ، ويتســاءل - أيضاً - فى هذه الرسالة عن حقيقة النفس ، هل هى عنصـــر واحــد لـــه أجزاء وقوى أم متعدد .

وله رسالة أخرى هى " كتاب العقل والمعقول " ، وأخرى يكتب فيـــها مقالة فى النفس والعقل ، وهى رسالة فى إثبـــات الصـــور الروحانيـــة. ويتناول فيها كيفية تحرك الأشياء الروحانية ، ويرى أنها تحرك ذاتها ، ثـــم تحدث عن جوهر النفس وجوهر العقل .

وهذه الرسائل ذات صلة وثيقة بعلـــم النفــس بمفهومـــه العصـــرى

الحديث. وإن كانت قد كتبت من منظور فلسفى فى عصر " مسكويه " ولـــذا نجد أنه من يدقق ، ويمعن النظر بعمق شديد ، وفكر ثاقب ، أنها محاولـــة منه لبيان وتوضيح هذه الحقائق النفسية .

هذا ؛ كما ألف كتباً فى طهارة النفـــس وترتيـــب الســعادات ، وفـــى الأخلاق ، وكتاب تهذيب الأخلاق ، وتطهير الأعراق ، وهو الكتـــاب الـــذى وقع عليه الاختيار لدراسته وبحثه لبيـــان مـــا يتضمنـــه مـــن مجـــالات أو موضوعات أو عوامل ذات الارتباط بمجال علم النفس ، وذلك لأنه قد أشـــار إلى الغرض من تأليفه وهو أنه يسعى للحصول على خلق يصدر عن النفـس يتمثل فى الأفعال الجميلة للإنسان ، وهو يرى أن هذا يمكـــن أن يتـــم عـــن طريق التعليم بعد معرفة نفوسنا . وهو يكتب لنا عن كل ما تقدم من نقـــاط بحث ودراسة يشير إلى أنه انتفع بخبرته وتجاربه الشخصية فى الحيـــاة ، وخاصة ما عاناه من انحطاط الأخلاق فى عصره .

الطبيعة الإنسانية وجوهرها عند مسكويه[١]

ويتناول " مسكويه " وجهات نظر الآخرين فى طبيعة الإنسان ، فيذكـــر أن هناك بعض الآراء التى تشير إلى أن الناس خلقـــوا أشـــرارا بـــالطبع ، وأنهم يصيرون أخياراً بالتأديب والتعلم ، وأن من البشر من هم فـــى غايـــة الشر لا يؤثر فيهم التأديب ، وأن منهم بين هذا وذاك ، وأنه يمكـــن لمثـــل هؤلاء أن ينتقلوا من الشر إلى الخير بالتأديب فى مرحلة الصبا ، وأن تـــهيأ لهم الفرصة لمخالطة الأخيار .

---

[١] مسكوية ص (٤٢ : ٤٥)

كما يعرض لوجهة نظر " الرواقيين " والتي لا تتفق مع الرأى السابق. حيث يرون أن الناس قد خلقوا أخياراً بالطبع ، ثم يصيرون بعد ذلك أشرارا ، وذلك عن طريق مجالسة الأشرار ، والإمعان فى إشباع الشهوات السيئة أو الرديئة التى لا تقمع بالتأديب .

ويذكر لنا رأى " جالينوس " فى طبيعة الإنسان الذى يرى أن الناس فيهم من هم خيرون بطبعهم ، ومنهم من هم أشرارا بالطبع ، وبقية الناس يتوسطون بين الخير والشر .

هذا ؛ وقد علق على هذه الآراء بانها غير صحيحة ، وبين سبب ذلك بالمناقشة والتحليل . ثم يعرض لوجهة نظره فى طبيعة الإنسان ، حيث يرى أن الإنسان فى جوهره الخاص الذى يتميز به عن غيره من الكائنات ، والذى لا يشاركه فيه مخلوق آخر يعتبر أشرف المخلوقات فى هذا العالم ، إلا أن الأفعال التى تصدر عنه لا تتفق وهذا الجوهر الشريف ، وحقيقة طبعه المحب الأنس الرافض للوحدة واعتزال الناس .

وبناءً على هذا الرأى فإنه يؤكد على ضرورة الاهتمام برعاية الإنسان حتى يمكن أن تكون أفعاله ، وما يصدر عنه من مختلف أنواع التصرفات والسلوك متفقة وجوهره الشريف الذى يفترضه فى طبيعة الإنسان.

كما يتحدث " مسكويه "[١] عن جوهر الإنسان ، وفى مقدمة ما

---

(١) تهذيب الأخلاق ص (١٨ : ٢٠)

يتحدث عنه ؛ ملكاته ، وأفعاله ، وقواه التى يتميز بها كإنسان ، والتى تتـم بها إنسانيته ؛ وهو يركز على الجانب الإرادى ، وخاصة ما يتعلـق بقـوة الفكر ، والقدرة على التمييز . ويرى أنه يمكن الحكم علـى الإنسـان عـن طريق مايصدر عنه من أفعال الخير وأفعال الشر، ويؤكد على أن الإنسـان قد خلق لفعل الخير وأن توجهاته كلها للحصول علـى الخـير وتحقيـق السعادة ، وأن حدوث الشر يتوقف على العوائق التى تعوق فعل الخـير ، وأن الشرور هى التى تحول بين الإنسان وبين الخيرات .

هذا ؛ وهو يؤكد دائماً على امتلاك الإنسان لحرية إرادته التى تمكنه من فعل الخير . ولهذا فهو يعتقد أنه إذا تمسك الإنسان وحافظ على حقيقـة جوهره الذى تميزه عن غيره من المخلوقات ، فإنه سيأتى بكل الخير الـذى من شأنه أن يحقق الهدف الأساسى الذى من أجله خلق ... ولذلك لابد مـن أن يكون على وعى شديد حتى يتجنب كل ما له صلة بالأفعـال الشـريرة ، والتى تكون سببًا أساسيًا لإعاقته عن فعل الخير الذى هو مفطـور عليـه . وهو إذا لم يحافظ على حقيقة جوهره هذه ، انحط قدره . بمعنى أنـه نـزل من مرتبة الإنسانية إلى مرتبة البهيمية الحيوانية . والأمـر يكـون علـى خلاف هذا إذا كان واعياً بكل ما يصدر عنه من أعمال وأفعال ، فيكون قـد زكى نفسه وأوصلها إلى الدرجة التى أرادها له الله سبحانه وتعالى ، وبذلـك تقر عينه ، ويشعر بالسعادة .

كما يشير إلى أن الإنسان كغيره من مخلوقات الله له مايميزه بفعلـه الخاص الذى لا يشاركه فيه أحد ، وذلك لأنه يتميز بقوة لا يملكها غيره مـن

المخلوقات ، ويرى أنه كلما كانت قوته المميزة عالية كان على درجة أفضل وأصح وأكمل فى الجانب الإنسانى .

طبيعة النفس :

يتناول " مسكويه "[١] النفس ؛ وهى مجال أساسى من المجالات التى يهتم بها علم النفس . بل يعتنى بدراستها لأنها جوهر الإنسان وحقيقته ، ووسيلته لتحديد نمط شخصيته ، حيث إنه عن طريق التعمق فى دراستها يستطيع الباحث أن يضع تصنيفاً لها ، بعد تحديد سماتها ، وأبعادها التى تميزها عن غيرها من النفوس ولهذا فإننا نجد أن " مسكويه" قد جد فى البحث عنها لمعرفة كنهها وحقيقتها . فنراه يسعى لتحديد خواصها فيقول " إنها ليست بجسم ولا أجزاء من جسم ، ولا عرضاً ذلك أنه لا يستحيل ولا يتغير ، وأنه يدرك جميع الأشياء بالسوية ، ولا يلحقه فتور ولا كلال ، ولا نقص ، وهى تقبل صور الأشياء كلها على اختلافها ، من المحسوسات والمعقولات على التمام والكمال من غير مرافقة للأولى ، ولا معاقبة ، ولا زوال رسم . بل يبقى الرسم الأول تامًا كاملاً ، وتقبل الرسم الثانى تاماً كاملاً ...وهكذا.

هذا ؛ ويؤكد على أن النفس البشرية لديها " قدرة مضادة لخواص الأجسام " ومن أجل هذا كان تحديده للنفس بأنها ليست جسماً ، كما أنها ليست عرضاً . حيث إن العرض لا يحمل عرضاً ، لأن العرض فى نفسه محمول أبداً ، موجود فى غيره لا قوام له فى ذاته . ولكن هذا الجوهر -

---

(١) تهذيب الأخلاق ص (١٣ : ١٤)

النفس - الذى حدد خصائصه " مسكويه " قابل دائماً ، حامل أتم ، وأكمل من حمل الأجسام للأعراض . وهو فى بيانه لخواص النفس وتوضيحها عن طريق الإشارة إلى بيان خواص جسم الإنسان . حيث يرى أن الطول والعرض والعمق الذى صار به الجسم جسماً . يحدث للنفس فى قوتها الوهمية - التصورية - من أن تصير بها أطول , ولا أعرض . ولا أعمق . بل لا تصير جسماً أبداً . مبيناً أن النفس لديها خواص أخرى فيها القدرة على معرفة الألوان ، والطعوم ، والروائح ، ولا يمنع بعضها بعضاً كما هى الحال بالنسبة للجسم ، فمن خصائصها قدرتها على قبول الأضداد ، وبدرجة من السواء ، وكذلك الأمر بالنسبة للمعقولات . حيث تزاد بكثير من المعقولات التى تحصلها ، وهى بذلك تزداد قوة على قوتها ، وهى خاصية تتميز بها عن الجسم .

كما نجد أن " مسكويه " يسعى لمحاولة بيان حقيقة النفس وكنهها ، وذلك عن طريق دراسة الفروق بين الجسم والنفس . حيث يرى أن الجسم يقوى بمعرفة المعلومات الحسية ، لأنه يميل بحكم تكوينه الطبيعى إليها ، كالشهوات البدنية ، ومحبة الانتقام والغلبة ، ولكن النفس على خلاف الجسم ، حيث إنها كلما تباعدت - النفس - عن الأمور البدنية الحسية ازدادت قوة ، وتماماً ، وكمالاً ، واستطاعت أن تحصل على الآراء الصحيحة والسليمة ، والمعقولة .

ومن هذا يبدو واضحاً مدى الاختلاف بين طبيعة الجسم وطبيعة النفس وجوهرها ، حيث إنها تتطلع إلى معرفة حقائق الأمور المعنوية ،

وخاصة ما له علاقة بالإلهية ، ومن أجل هذا فهى أكثر ميلاً - بحكم طبيعتها - كل ما هو فاضل وشريف . بل وأنها تنصرف عن اللذات الجسمانية . وكل ذلك يؤكد لنا أن جوهر النفس أكرم وأعلى من جوهر الجسم ، ومن هنا بدت قدرتها على معرفة أسباب الاتفاقات والاختلافات بين المحسوسات .

الحاجات الأساسية للنمو الإنسانى والشخصية السوية

عندما تناول " مسكويه "[1] الشخصية الإنسانية ، وبين لنا طبيعة الجسد ، ذكر ميله إلى إشباع الحاجات ، وتلبية رغباته وشهواته ، سواء كانت هذه الحاجات مرتبطة بالطعام أو الشراب ، أو الجنس - وهى الحاجات البيولوجية أو الأولية التى يتحدث عنها علماء النفس فى العصر الحديث - ويشير إلى أن مثل هذه الحاجات ترتبط بالنفس الشهوانية . ويذكر لنا أن النفس العاقلة أو الناطقة تقوم بتنظيم إشباع هذه الحاجات الجسدية وذلك عن طريق الروية فى عملية الإشباع .

ويذكر " مسكويه " وجهات نظر من سبقوه فى أهمية إشباع الحاجات الإنسانية وأن عدم إشباع هذه الحاجات يشعر الإنسان بالألم ، والعكس على خلاف هذا ، عندما تشبع يتحقق للإنسان الشعور باللذة ، وأن هذا الشعور الأخير يتم بعد الألم ، على أساس أن كل لذة حسية هى خلاص من ألم أو أذى ، أو إنها - اللذة - عبارة عن راحة من ألم .

---

(١) تهذيب الاخلاق ص (٥٢ : ٥٦ ، ٥٩ : ٦١ ، ٦٨ : ٦٩)

ويعلق " مسكويه " على هذا الرأى السابق ، بأنـــه مـــن يـــرى أن إشباع الحاجات الأساسية الخاصة بالجسد هدف فى حد ذاته لتحقيق اللـــذة ، وجعلها غاية أساسية فى حياته ، يمكن عن طريقها تحقيق السعادة ، فـــإن مثل هذا الإنسان يصبح عبداً لهذه اللذات ، والتى يرى أنها لا تميز الإنســان عن غيره من الكائنات الحية الدنيا كالحشرات والحيوانـــات . لذلــك فإنـــه عندما يتعرض للحديث عن الحاجات الأساسية للنمو ، فإنه يـــرى أن عـــدم الاهتمام بإشباعها يسبب نوعاً من أنواع القصور أو النقـــائص الجســـمية ، وفى مقدمة هذه الحاجات ، الحاجة للغذاء ، والذى به يتم قـــوام الحيـــاة ، ويعتدل مزاج الإنسان إذا ما أشبع بالقدر الضرورى الذى يتم به الكمـــال ، ويؤكد على أن طلب الغذاء يجب أن يكون للنمو واستمرارية الحياة ، وليس طلباً للذة، وهذا يعنى عدم تجاوز قدر حاجة الإنسان حفاظاً لذاته .

ويضيف إلى هذه الحاجة ، الحاجة إلى الملبس ، والذى بـــه يحفـــظ الإنسان جسمه من أذى الحر والبرد . فضلاً عن ستر عورته ، بشرط عـــدم المبالغة فى نوعية هذا الملبس ، وفى الوقت نفسه لا يقتر أو يبخـــل علـــى نفسه. بما يجعله يسقط بين أقرانه وأهله .

ونلاحظ من عرض وجهة نظر " مسكويه " فى هذه الحاجة أنـــها لا تقتصر على أهميتها بالنسبة للجانب الجسمى ، إنما يشير إلـــى أهميتـــها بالنسبة للجانب النفسى ، وكذلك مدى تكامل شخصيته وإحساســـه بالرضـــا عن ذاته .

ثم يؤكد على أهمية الحاجة إلى الجنس ، ويرى أنها ضرورية لحفظ

النوع حيث بها تبقى صورته ، ويضع شروطاً لصحة إشباع هذه الحاجـــة ، والوصول عن طريقها إلى المراد منها ، ومن بين هذه الشــروط أن يكــون طلبها أولا وقبل أى هدف آخر النسل ، وألا يتجاوز فى إشباعها ، وأن يتبـع فى ممارســتها الســنة الشــريفة ، وألا يتعـدى - لممارســتها - علـــى غير ما يملكه.

ويفهم من أهمية إشباع هذه الحاجة بتلك الأسس والمبادئ الارتقــاء باستخدام الجنس فى حياة الإنسان ، وأن اللذة المترتبـــة علـــى ممارســته ليست هدفاً فى حد ذاتها، إنما تحقيقها يشكل دافعاً قويـــاً للإشــباع ابتغـــاء مرضاة الله والحصول على نتائج الشريعة .

وينتقل بعـــد ذلـــك إلـــى الحديـــث عـــن الحاجـــات ذات الارتبـــاط بالجـــانب النفســـى والتـــى يطلـــق عليـــها - الفضـــائل - ويـــرى أنـــــها ضرورية للإنسان -. حيـــث يعتبرهـــا غـــذاء النفـــس العاقلـــة الموافـــق لطبيعتها . ويرى إذا لم يحقق إشباعاً مـــن هـــذه الفضـــائل فـــى مراحـــل عمره الأولى ، وتعداها إلى غيرها من أنـــواع المعـــارف المكتســـبة التـــى تدفع الفرد إلى اللذات الجسمانية كالشـــعر الفـــاحش ، وقبـــول أكاذيبـــه ، واستحسان ما يوجد فيه مـــن قبـــائح بـــهدف تحقيـــق لـــذات فـــى هـــذا المجال ، أو عن طريـــق الاختـــلاط بـــأقران يســـاعدونه علـــى حصولـــه علـــى اللـــذات الجســـمانية ، واســـتكثاره منـــها ، والانـــهماك فـــى الإشباع منـــها أدى ذلـــك إلـــى ابتعـــاد الإنســـان عـــن تحقيـــق الســـعادة الحقيقيـــة .

الشخصية الإنسانية ومكوناتها

يشير " مسكويه " فى كتابه " تهذيب الأخلاق " إلى مكونات الشخصية الإنسانية وذلك تحت عنوان " قوى النفس[١] " حيث يرى أنها تنقسم إلى ثلاثة جوانب: أولهما : الجانب العقلى والذى به يكون الفكر والتمييز ، والنظر فى حقائق الأمور . وثانيهما : الجانب الوجدانى الانفعالى والذى به يكون الغضب والنجدة ، والإقدام على الأهوال ، والشوق إلى التسلط والترفع وضروب الكرامات . وثالثهما: الجانب البيولوجى والذى يتمثل فى الغرائز والتى بها تكون الشهوة وطلب الغذاء والشوق إلى الملذات فى المأكل والمشرب والجنس وغيرها من ضروب اللذات الحسية .

ويرى " مسكويه " أن هذه الجوانب - القوى الثلاث - متباينة ، ويريد بذلك أن يوضح أنه إذا قوى مكون منها أضر بالآخرين ، وقد يصل الأمر إلى ضعف فعل أحدهما أو إبطاله وقد تتكامل لتصبح قوة واحدة " قوى لنفس واحدة " .

ويستطرد فى الحديث عن هذه القوى فيسمى القوة الأولى - المكون الأول[٢]- القوة الناطقة وتسمى الملكية وآلتها من البدن " الدماغ " . والقوة الثانية : وهى القوة الشهوية وتسمى البهيمية وآلتها التى تستخدمها من البدن " الكبد " . والقوة الثالثة : -المكون الثالث - القوة الغضبية . وتسمى السبعية ، وآلتها من البدن " القلب " .

(١) تهذيب الأخلاق ص (٢٣ : ٣٨)

(٢) أطلقت عليها مكونات الشخصية (ثلاث مكونات)

هذا ؛ ويعرض " مسكويه " لبيان أعمال هذه القوى الثلاث - المكونات الثلاثة للشخصية - ويرى أن أعمالها تتوقف على تكوين وإعداد هذه القوة ، فإن كانت الأعمال التى تصدر عن النفس فاضلة كان ذلك نتيجة لغلبة حركة قوة النفس الناطقة[١] فى حالة اعتدالها ، وأن تكون غير خارجة على ذاتها ، حيث إن الإنسان يصل عن طريقها إلى العلم والحكمة .

وإذا كانت حركة قوى النفس " البهيمية " معتدلة فإن اعتدالها يكون بانقيادها لقوى النفس العاقلة وغير متباينة عليها فيما تقسطه لها ، وليست منهمكة باتباع هواها كانت أعمالها من الأعمال الفاضلة ، حيث تكون على درجة عالية من الفقر والسخاء .

وإذا كانت حركة قوى النفس " الغضبية " معتدلة بطاعتها لقوى النفس العاقلة فيما تقسط لها كانت أعمالها من الأعمال الفاضلة ، بعيدة عن التهيج ، أو أن تشتد أكثر مما ينبغى ، وبذلك تكون على درجة من الحلم والشجاعة .

وينتج عن حالة توافق القوى النفسية الثلاث - بشرط انقياد القوى النفسية البهيمية ، وإطاعة القوى النفسية الغضبية للقوى النفسية العاقلة - مجموعة من الفضائل التالية : العفة والسخاء والحلم والشجاعة التى من شأنها أن تجعل الإنسانية تتسم بشكل عام بفضيلة العدل .

---

(١) قوى النفس العاقلة

ويرى " مسكويه " أن من يتسم بعكس ما تقدم من فضـــائل يكــون نتيجة لعدم تكاملها مع بعضها بعضاً ، وعدم توافق القوى النفسية الثـلاث ، فإنه يعد إنساناً غير طبيعي . حيث تغلب عليه سمات الجـــهلاء والأشـــرار والجبناء والظالمين ...ويمكن أن يصل الإنسان الفرد بهذه السمات إلى حالـة المرض النفسي ، ويترتب عليه تواجد أمراض أخـــرى كـــالخوف والحــزن والغضب والإمعان في الشهوانية وغيرها من ضروب السمات التـــي تشـــير إلى سوء خلق الشخصية الإنسانية .

هذا ؛ ويذكر في نهاية حديثه عن الفضائل السمات التي تسمو بـــها كل نفس من الأنفس الثلاث حيث يعتبر أن الحكمة فضيلـــة قـــوى النفـــس العاقلة المميزة التي تستطيع أن تدرك وتتعلم أمور الإلهيـــة والإنســـانية والتي ينتج عنها معرفة كثير من المعقـــولات التي يتم عن طريقها معرفـــة الإنسان ما يحب أن يفعل ، وأيها يحب أن يغفل وأن العفة فضيلـــة القـــوى النفسية البهيمية أو الشهوانية ، وهي تظهر إذا ما انقادت إلى قوى النفـــس الناطقة المميزة ، والتي ينتج عنها قدرة للإنسان يتمكن بـــها مـــن صـــرف شهواته بناء على إطاعته للقوى العاقلة ، فيصبح قادراً على التمييز ، فـــلا ينقاد لأي نوع من أنواع الشهوات .

كما يرى أن الشجاعة فضيلة القوة النفسية الغضبية ، وهي تظـــهر حال انقياد هذه القوة للقوة النفسية العاقلة المميزة ، فيصبح الإنسان قـــادراً على حسن استعمال الرأي وتوجيه سلوكه في الأمور والمواقـــف الصعبـــة والشديدة ، وعندئذ لا تصاب الشخصية الإنسانية بالخوف أو الفـــزع حيـــال

مواقف الحياة المختلفة .

ويتناول " مسكويه " فضيلة العدل التى يعتبرها محصلـــة الفضـــائل الثلاث السابقة والتى تكون نتائج التوافق بين قوى النفس المختلفة ، بنـــاء على استسلام القوة النفسية البهيمية ، والغضبية لقـــوى النفـس العاقلـة المميزة ، وعندئذ لا يترك الإنسان فى حركته فى الحياة وفق طبائع هـــاتين القوتين ومتطلباتهما إنما وفق النفس العاقلة المميزة التى تجعـل الإنســان قادراً على إنصاف نفسه والانتصاف لغيره .

ويؤكـد " مســكويه " علــى أن الشــخصية الإنســانية لا تقـــوم بنفسها فحسب، أو ذاتها فقط . أى أنها لا تكتفـــى بذاتــها عــن غيرهــا من ذوات الآخرين ، ذلك لأنها فى حاجـــة إلــى غيرهــا لتكمــل ذاتــها ، ولتكتشفها ومن أجل هذا لابـــد مــن أن يحيــا ويعيــش الإنســان وســط مجموعة معينة من الناس تعينه وتتعاون معـــه ، حتــى يمكــن أن يــدرك ذاتها إدراكا حقيقياً . فضلاً عــن إســهام كــل مــن الفــرد وغــيره مــن الناس فى تحقيق الذات ، وبذلك يتحقق قدر كبــير مــن الحيــاة الطبيعيــة للإنسان . ولهذا أكد العلماء علــى أن الإنســان مدنــى بطبعــه . أى أنــه محتاج للعيش فى المدينة - التى يتجمـــع فيــها كثــير مــن البشــر كــل منهم له خلقه - حتى يتحقق له الإحســـاس بالســعادة الإنســانية . حيــث إنه من الطبيعى أن يسعى الإنســـان إلــى معرفــة غــيره ومصادقتــهم ، ومعاشرتهم العشــرة الجميلة، ومحبتــهم المحبــة الصادقــة التــى تؤكــد حاجة الإنســان إلى أخيه الإنســـان.

كما يضيف " مسكويه[١] " معلومة أساسية وهامة يؤكد عليها علماء النفس فى دراساتهم وبحوثهم ، وهى أن الفضائل - (السمات) - ليست مجرد كلمات مجردة أو مفاهيم جوفاء ، أو أسماء لمعانى لا واقع لها . بل هى أفعال وأعمال وسلوك يظهر عند مشاركة الإنسان لغيره ومساكنتهم ، ومعاملتهم ، ومختلف ضروب العلاقات الاجتماعية .

ويبين " مسكويه[٢] " أن النفس واحدة ، ولها قوى ثلاث تتصل ببعضها لتصبح نفساً واحدة وأنها[٣] واحدة بالذات ، وكثيرة بالعرض والموضوع ، وأن الشخصية الإنسانية هى مكون القوة النفسية الثلاث . حيث تتكامل هذه القوى ، فتصبح على درجة من كمال الذات بإتمام ما نقص فيها عن طريق العمل على علوها ، وتطورها ، والذى ينتج عنه إحساس الفرد بالراحة والسعادة النفسية . وفيما يلى بيان لهذه القوى النفسية الثلاث :

أولاً : النفس العاقلة أو الناطقة[٤]

وتعتبر هذه النفس فى المرتبة الأولى ، وهى أفضل النفوس ، وبها يصبح الإنسان متوافقاً مع جوهره وحقيقة تكوينه ، وبها

---

(١) تهذيب الأخلاق ص (٣٨)

(٢) تهذيب الأخلاق ص (٥٦ : ٥٨ ، ٦٢ : ٦٥)

(٣) وهو يعتمد فى حديثه عن النفس على قراءاته وفهمه لمن سبقوه فى هذا المجال .

(٤) هى القوى التى يكون بها الفكر والتمييز .

وبـها يتفـاضل الإنسـان عـن غـيره مـن الكائنـات الأخـرى ، والموجودات. كما أنها تشكل أهمية بالغـة فيمـا يكـون عليـه مسـتوى مزاجه وسوائه النفسى ، وبها - أيضـاً - يصبـح الإنسـان قـادراً علـى أن يكون حكيماً و أميناً ، وقد يصل بعض البشـر إلـى درجـة مـا مـن الشفافية والرقى إذا ما أحسـن اسـتخدامها .

هذا ؛ وقد شبهها " مسـكويه " بـالذهب فـى المرونـة ، حيـث يستطيع الإنسان عن طريقها أن يدرك ويعى ويفـهم ثـم يسـلك - وفـق ماتقدم - أفضل أنواع السـلوك وهـى نعمـة مـن الله أنعـم بـها علـى الإنسان ليضبط بها كـل مـن النفـس الغضبيـة أو السـبعية ، والنفـس الشهوية حالة زيادة قوة كـل منـهما لإشـباع رغبتـهما عنـد الغضـب والشـهوة .

ويرى " مسـكويه " أن النفـس العاقلـة تعتـبر القـوة المميـزة التى تعين الإنسان وتمكنه من التميـيز بيـن الأفعـال حتـى يصـل إلـى أعلى درجة من الكمال فـى التميـيز ، وعندئـذ يمكـن أن نطلـق علـى الإنسان صفة العقلية ، ووسيلتها إلـى ذلـك اسـتخدام المـخ. وأن هـذه النفس ليست - كما ظن بعض الناس من العامـة والجـهلاء - أنـها فـى خدمة النفس الشهوية أو أنها تستخدم فى الحصـول علـى اللـذات التـى تطلبها مـن المـأكل والمشـرب ...... وتحقيـق منتـهى غاياتـها مـن الشهوة وهى اللذة ، بل إنها قـوة فاعلـة للذكـر ، والحفـظ, والرويـة، ومن أجل ذلك فهى وسيلة الإنسـان للفضيلـة .

ومما تقدم يبدو واضحاً أن النفس العاقلة هى نفس ضابطة لرغبات وحاجات النفس الشهوية ، وذلك عن طريق ترتيب وتنظيم الأمور والظروف التى يتحقق من خلالها إشباع حاجات النفس الشهوية . كما أنها - النفس العاقلة - تسهم بدرجة كبيرة فى مدى تحرر الإنسان من القوانين الشهوية والغضبية . وبذلك تنتظم حياة الإنسان . بما يؤدى إلى تحقيق قدر من السواء النفسى . فضلاً عن أدوارها فى مساعدة الإنسان للوصول إلى الاكتمال المنشود والمتطلع إليه من وظائف القوى العاقلة المميزة للعالم .

كما أن " مسكويه " يرى أن القوة العاقلة هى وسيلة الإنسان للوصول إلى الفعل العلمى الملموس المحسوس على اعتبار أن العلم " مبدأ " وأن العمل " تمام للمبدأ " وأن المبدأ بلا تمام يصبح ضائعاً ، وأن التمام بلا مبدأ يكون مستحيلاً ، وأن بهما معاً يتحقق الغرض واكتمال الذات . حيث إنه يرى " أن كمال الذات والغرض ليس شيئاً واحداً ، إنما يعدان شيئان على أساس أن الكمال - إذا نظر إليه وهو بعد من النفس - ولم يخرج إلى العقل فهو غرض ، فإذا خرج إلى الفعل وتم فهو كمال".

هذا ؛ وتعمل هذه القوى النفسية الثلاث عن طريق اتصالها وتفاعلها ببعضها وإحداث التوافق بينها ، وعندئذ تصير شيئاً واحداً يمكن أن نطلق عليه الشخصية الإنسانية السوية .

ومن هذا يبدو واضحاً أن الإنسان يستطيع عن طريق قواه النفسية الثلاث أن يكون الشخصية السوية التى تكون على درجة كمال الذات، وذلك بإتمام ما نقص فيها ، والعمل على علوها وتطورها .

ويلفت " مسكويه " النظر إلى أن هذه القوى النفسية الثلاث مع كونها شيئا واحداً ، فإنها لديها استعداد للتغاير ، وأن قوة كل منها قابلة للثورة الواحدة بعد الأخرى ، ومن يرى ذلك لا يمكن أن يتصور إمكانية اتصالها وتفاعلها ببعضها . وأنه يمكن أن تضعف إحداها وتبدو كأنها غير ذات قوة . بل وغير موجودة ، وأن هذا يتم حال ارتفاع مستوى قوة إحداها، أو ضعف قوة بعضها .

ثانياً : النفس الغضبية أو السبعية(١)

وتعتبر هذه النفس فى المرتبة الثانية أو الجزء الثانى المشكل للشخصية الإنسانية ، وهى تقع كما أورد " مسكويه " فى المرتبة الوسطى . وهى قوة إذا غلبت على الإنسان ، ولم تخضع لقوى النفس العاقلة المميزة أدت إلى خلل فى قدرة الشخصية الإنسانية ، وجعلته فى مكانة وضيعة نتيجة لعدم استجابتها حال إصدار السلوك للنفس العاقلة المميزة . حيث إنها تدعو الإنسان - بسيطرتها - إلى التفاعل مع رغبات النفس الشهوانية. حيث إن الغضب والتمادى فيه يسهم فى سرعة استجابة الإنسان لرغبات النفس الثالثة.

---

(١) القوى التى يكون بها الغضب والنجدة والإقدام على الصعاب والشوق إلى التسلط والترفع . وأنواع الكرامات.

والعكس على خلاف هذا ، إذا استجابت هذه النفس لقــوى النفــس العاقلة تمكن الإنسان من تقويم وتعديل قوى النفس البهيميــة - الثالثــة - وجعلها تتقبل الأدب ، وحسن الطاعة وبذلك يمكن ضبطها . بل وقمع قـــوى النفس البهيمية . وهذا ما جعل " مسكويه " يؤكد على أن النفس الغضبيـــة هى القوة الصلبة التى يمكن الاستعانة بها لقهر قـــوى النفــس البهيميــة (ويرى أن الآلة التى تستخدمها هذه القوة القلب) وأن هذه النفس إذا كـانت معتدلة فإنها تطيع قوى النفس العاقلة ، فلا تهيج فى غير وقتها الذى يجـب أن تنفعل له . وألا تزيد فى شدة انفعالها لأن مثل هذه الزيادة لاتؤدى إلـــى سلوك سوى سليم .

هذا ؛ ويرى " مسكويه " أن تكامل هذه القوى الثلاث بـــاعتدال كـل منها فيما يخصه يؤدى إلى تكامل الشخصية والتى يمكـــن أن يصـل بـــها الإنسان إلى العدل والحكمة والعفة والشجاعة .

ثالثاً: النفس الشهوية أو البهيمية[١]

تقع هذه النفس فى المرتبة الثالثة ؛ وهى المرتبة الأدنـــى بالنســبة لبقية القوى النفسية السابقة . وهى تقود الإنسان - إذا سيطرت عليه - إلى ممارسة وإشباع الشهوات . وتعمل هذه القوة وفق اللذة الفاعلـــة ، حيـث إنها تقود الإنسان - إذا سيطرت عليه - إلى اشباع الشهوات ، كالمـــأكول ، والملبوس ، والمشروب ، وغيرها من الشهوات .

---

(١) هى القوى التى يكون بها الشهوة ، وطلب الغذاء ، والشوق إلى الملذات من المـــأكل والمشارب والجنس ومختلف اللذات الحسية .

ويرى " مسكويه " إنه إذا غلبت هذه القوة النفسية علـــى الإنســان جعلته ممارساً لمختلف الأعمال البهيمية . وإذا استطاع الإنسان أن يوظــف قوى النفس العاقلة ، فإنه يمكن أن يستحى من هـــذه الأفعــال الشـــهوانية البهيمية ، فيستتر حال إتيانها وذلك بالتوارى فى الظلمات أو داخل البيــوت، ويدل الاختفاء عن أعين الناس على إدراكه لقبح مايفعل . وإذا استمر فـــى تلبية رغبات النفس الشهوية قادته إلى أن يكون خسيس الطبـــع ، ســيئ المذهب . الأمر الذى يشعر معه أنه أقل من غيره من نوعيات البشر التى لا تستجيب لمثل هذه القوة أو إذا استجابت لها استخدمت معها القوة العاقلة .

هذا ؛ ويؤكد " مسكويه " أن مـــن أبــرز ســمات هــذه النفــس - الشهوانية - أنها عديمة الأدب ، وغير قابلة له ، وأنها إذا غلبت وســيطرت ساء حال القوتين السابقتين - العاقلة والغضبية - وأدت إلى تحويل الإنســان إلى شخصية ضعيفة . ويرى أن الأداة التى تستخدمها هذه القوة الكبد .

وإذا لم يكن للقوة العاقلة سيطرة عليها لضبطها ؛ أدى هـــذا إلـــى الإمعان فى مزيد من الشهوات البهيمية . حيث إنها تعتبر ذات أوليـــة فـــى الظهور عند الإنسان ، بداية بالشهوة للغذاء الذى يعتبر أساساً لاســتمرارية الحياة ، ووصولها بالإنسان إلى الإمعان فى إشباع رغباته ؛ ولذاته التـــى لا تنتهى والتى تتزايد بتزايد نمو الإنسان لأنها تعمل وفق اللذة الانفعالية .

ويرى " مسكويه " أن هذه النفس هى التى تشعر الإنسان بـــالجوع والعرى ، ومختلف ضروب النقص الذى تستشعره ، والحاجات التى تدفعـــه لإشباعها حتى لا يلحق بالإنسان الضرر أو الأذى ، وعندئذ يعود الإنســـان

إلى حالة السلامة والشعور باللذة التى تتبع الشعور بألم الجــوع ومن أجــل هذا قال: إن بنى البشر " إن لم يؤلموا لــم يلتــذوا بــالأكل . وهكــذا فــى مخــتلف اللذات الأخرى . وأن اللذة راحة من ألم ، وأن كل لــذة حســـية هى خلاص من ألم أو أذى " .

هذا ؛ ويؤكد على أن جسد الإنسان مطبـــوع علــى الحاجــة إلــى الشهوات، وأن ما يحدث من لذة إشباع هذه الشهوات إنما هـــى ضــرورة للجسد، وذلك لحفظ تركيبه ونوعه .

هذا ؛ ويشير " مسكويه " إلى أن مصدر التوازن فى حياة الإنســـان بين الجانب الجسمى والنفسى هو الغذاء الذى يعتبر أساساً لإزالة ما يلحــق من نقص فى جانبيــه، وذلــك عــن طريــق إشــباع حاجاتــه الأساسـية والضرورية. حيث إن الغذاء هو وسيلة الإنسان إلـــى اســتمرارية حياتــه بصورة سليمة صحيحة .بالإضافة إلى اعتدال مزاجه. ويرى أن أى تجــاوز فى إشباع هذه الحاجات يؤدى إلى عــدم إتــزان (الســواء النفســى)،وأن الوسطية فى الإشباع هى التى تحقق التوازن سواء الجـــانب الجســمى أو النفسى ،وتجعل الإنسان على درجة من الفضل التى يصــير بــها الإنســان إنساناً .

ويؤكد على ضرورة اختيار الغذاء المطلوب للجانب العقلى الذى يتـم عن طريقه التكامل ، ويزيل النقصان ، ثم يحدد - بعد هــذا - أهــم غــذاء بالنسبة لهذا الجانب ، وهو العلم الذى يسهم بدرجة كبيرة فى النمو العقلــى، والذى به يدرك الإنسان الحق والصدق فى أى مكان وأى زمـــان ، وكذلــك

الأمر بالنسبة لإدراك الباطل والكذب ، ويضيف إلى ما تقدم من أهمية العلم كغذاء للنمو العقلى ، الإلتزام بالخلق القويم . بالإضافة إلى الاهتمام بتعليم الحساب والهندسة لما لهما من أهمية فى التحقق من صحة البرهان . وإذا استطاع الإنسان أن يحقق هذا الغذاء اللازم للنمو الإنسانى فإنه يستطيع أن يحقق أفضل مستوى من السعادة والسواء النفسى .

صفات الشخصية الإنسانية

ويستمر " مسكويه " فى وصف وتحديد الشخصية الإنسانية ؛ فيتناول عدداً من الصفات الإنسانية التى يتميز بها الإنسان عن غيره من الكائنات الأخرى بالبيان والتوضيح . ويعرض لهذه السمات تحت مسمى " الفضائل "، ويسعى لتحديد المقصود بكل منها تحديداً يفرق به بين صفة وأخرى .

ويعرض فى مقدمة صفات الشخصية صفة الحكمة[١] ويرى أنه يندرج تحتها مجموعة من الصفات تعطى فى محصلتها حكمة الإنسان . وفى مقدمة هذه الصفات؛ الذكاء : الذى يعرفه بأنه سرعة إنقداح النتائج ، وسهولتها على الفهم النفسى . والذكر : الذى يعنى ثبات صورة ما يخلصه العقل من الأمور ، والتعقل : الذى يعنى موافقة بحث النفس عن الأشياء الموضوعية بقدر ما هى عليه . وآخرون صفاء الذهن: الذى يعنى استعداد النفس لاستخراج المطلوب . وسهولة التعلم .. الذى يعنى القدرة على الفهم وإدراك الأمور النظرية .

---

(١) تهذيب الأخلاق ص (٢٧ : ٢٨)

ويتناول بعد ذلك صفة **العفة**[١] : وفى مقدمتها **الحياء** التى يعرفـها بانها " انحصار النفس خوف إتيان القبائح ، والحذر مـن الـذم ، والسـب الصادق . " ثم يبين عدداً من الصفات التى ترتبط بـهذه الصفـة ، وهـى **الدعة**: والتى تعنى سكون النفس عند حركة الشهوات . و**الصبر** : ويقصـد بها مقاومة النفس للانقياد لقبائح اللذات . و**السخاء** : الذى يعنى التوسـط فى العطاء ، وإنفاق الأموال فيما ينبغى على مقـدار مـا ينبغـى ، وعلـى ماينبغى , و**الحرية** : التى تمكن الإنسان من اكتساب المـال مـن وجهـة ويعطى فى وجهة، وتمنع من اكتسابه من غير وجهة ، والقناعـة : التـى تعنى التساهل فى المآكل والمشارب والزينة. و**الدماثة** : التى تعنى حسـن انقياد النفس لما يجمل، وتسرعها إلى الجميل. و **الانتظام** : والتى تعنـى حسن تقدير الأمور وترتيبها كما ينبغى . وحسن الهدى التـى يقصـد بـها محبة تكميل النفس بالزينة ، أى الأخلاق الطيبة المرضيـة ، والمسـالمة : التى تعنى موادعة النفس حتى لاتضر بالآخرين ، أما سمة **الوقار** : التـى يقصد بها سكون النفس وثباتها عند الحركات التى تكون فى المطـالب . و **الورع** : وتعنى الالتزام بالأعمال الجميلة التى بها كمال النفس .

ثم يذكر صفة **الشجاعة**[٢] : والتى يندرج تحتها عدداً من الصفـات ذات الإرتباط بها وفى مقدمة هذه الصفات ، صفة **كبر النفس**: التى تعنـى الاستهانة باليسير والاقتدار على تحمل المسـئوليات ، والتصـدى للأمـور

---

(١) تهذيب الأخلاق ص (٢٨ : ٢٩)

(٢) تهذيب الأخلاق ص (٣٠)

العظام لاستخفافه بها . والنجدة : والتى يقصد بها ثقة النفس عند المخاوف فلا يداخلها جزع . وعظم الهمة : والتى يتحقق بها سعادة الجد وضدها حتى الشدائد التى تكون عند الموت . وصفة الثبات : التى تعنى احتمال الآلام ومقاومتها حالة حدوث الأهوال والمصائب . و الحلم : التى بها تكتسب النفس الطمأنينة فلا تكون شغبه ولا يحركها الغضب بسهولة وسرعة وصفة السكون : التى تعنى عدم الطيش الذى يبدو عند مواجهة الخصومات، أو الحروب أو الدفاع عن الحريم أو الشريعة . وهى قوى تمكن النفس من قسر حركتها فى هذه الأحوال . و الشهامة : التى تعنى الحرص على الأعمال العظام ، وتوقعاً للذكر الطيب والحديث الجميل . وينهى "مسكويه " كلامه عن الصفات المرتبطة بالشجاعة أو التى تندرج تحتها صفة الكد التى تشكل قوة للنفس تمكن الإنسان من استعمال آلات البدن بالأمور الحسية بالتمرين وحسن العادة .

ويشير بعد ذلك إلى صفات أخرى وهى صفة السخاء : التى تعنى إنفاق المال بسهولة من النفس فى الأمور الجليلة القدر ، الكثير النفع كما ينبغى ، ويتصل بهذه الصفة عدد آخر من الصفات منها ؛ الإيثار : وهى سمة يكف بها الإنسان عن بعض حاجاته التى تخصه حتى يبذله لمن يستحق. والنبل : التى تعنى سرور النفس بالأفعال العظام وابتهاجها بلزوم هذه السيرة. والمواساة : التى تعنى معاونة الأصدقاء والمستحقين ومشاركتهم بالأموال والأقوات . أما السماحة : فهى تعنى بذل الإنسان بعض ما لا يحب والمسامحة : التى تعنى ترك بعض ما يحب .

وينهى حديثه بصفة العدالة : فيذكر فى مقدمتها الصداقة : التى تعنى محبة صادقة ، يهتم معها بجميع أحوال الصديق ، و إيثار فعل الخيرات التى يمكن أن يفعلها له . والألفة : التى يقصد بها اتفاق الآراء والاعتقادات وتحدث بالتواصل وصلة الرحم : والتى تعنى مشاركة ذوى القربى فى الخيرات التى فى الدنيا . والمكافأة : ويقصد بها مقابلة الإحسان بمثله ، وبزيادة عليه . وحسن الشراكة : وتتمثل فى عمليات ذو الأخذ والعطاء فى المعاملات على الاعتدال الموافق للجميع . وحسن القضاء : ويقصد به المجازاة بعدل بغير ندم ، ولا منّ . والتودد : الذى يقصد به طلب مودة الأكفاء ، وأهل الفضل بحسن اللقاء ، وبالأعمال التى تستدعى المحبة منهم، ثم العبادة : والتى تعنى تعظيم الله تعالى ، وتمجيده وطاعته، وإكرام[١] أوليائه من الملائكة والأنبياء والأئمة والعمل بتوجيه الشريعة ، وتقوى الله .

ومما تقدم من عرض وبيان لأهم صفات الشخصية الإنسانية كما يراها " مسكويه " والتى يرى أنها فضائل يتميز بها الإنسان عن غيره من الكائنات . يبدو واضحاً فهمه الجيد لمفهوم الشخصية كما يراها من يعملون فى مجال علم النفس فى العصر الحديث ، وإدراكه الصحيح للصفات التى يجب أن يتميز بها الإنسان عن غيره من الكائنات ، ويحصل على أفضل مستوى من الراحة والهدوء النفسى . فضلاً عن توافق وجهة نظره فيما تكون عليه الشخصية الإنسانية من هذه

---

(١) تهذيب الأخلاق ص (٤١ : ٤٥)

الصفات ، ووجهـة نظره فى الطبيعة الإنسانية ، والتى يراها أنها خيرة فى حقيقتها .

كما يتضح – أيضاً – أن " مسكويه " يـرى أن هـذه الصفـات[١] يكتسبها من خلال عملية التعليم والتربية ، وهو ما يطلـق عليـه التـأديب والتهذيب للنفس . وأن هذه الصفات تحافظ على نقاء وخير الإنسـان مـن الانحراف نتيجة معايشته لغيره من الناس الذين طغت إحدى قـوى النفـس البهيمية أو الغضبية ، ولم تستجيب للمكون الثالث للشخصية الإنسانية وهى القوى العاقلة أو الناطقة .

مسكويه والجانب الانفعالى لدى الإنسان :

يتناول " مسكويه " موضـوع الجـانب الانفعـالى عنـد الإنسـان تحت مسمى (الخلق) . حيـث يـرى أن أخـلاق الإنسـان تبـدو فيمـا يصدر عن نفسه من أفعال من غـير فكـر ولا رويـة . ويذكـر أن هـذه الحال تنقسم إلى قسمين : أولهما : يكون طبيعيـاً مـن أصـل المـزاج ، ويضرب لنا مثلاً يوضح ذلـك ؛ كالإنسـان الـذى يحركـه أدنـى شـىء نحو الغضب ، ويهيج من أقل الأسـباب ، أو كـالذى يخـاف مـن أيسـر شىء ، أو يفزع من أدنى صوت يطـرق سـمعه ، أو يرتـاع " يرتعـب " أو يضطرب من خبر يسـمعه ، أو كـالذى يضحـك ضحكـاً مفرطـاً مـن أدنى أو أبسط شىء يعجبه ، أو كالذى يغتـم ويحـزن مـن أيسـر شـئ يناله .

---

(١) والتى يسميها بالفضائل .

وهو يعرض لنـــا هــذا الجـانب فــى الإنســان ويتعــرض لآراء العلماء فى مصدر الخلق الذى يشــكل الأســاس فــى إصــدار الانفعــالات لدى الإنسان هل يصدر عن النفــس العاقلــة أو الناطقــة ، ويشــير إلــى أن بعــض العلمـــاء يذكــر أنــه مــن اختصــاص النفــس الناطقـــة . واختلفــت آراء بعضـــهم حــول أنـــه طبيعيـــاً أم لا. إلا أن " مســــكويه " يميل إلى اعتباره طبيعياً فى الإنســـان ، علــى أســاس أننـــا مطبوعيــن على قبول الخلق لأنه إذا رد إلى أى قوة مـــن قــوى النفــس البشــرية، فإنه يعطلها عن دورها فى التميـــيز .

ويوضح " مسكويه " المقصـــود بأنـــه طبيعــى أو بــأن الإنســان مطبوع علـــى قبــول الخلــق . بمعنـــى أن الإنســان لا ينبغــى أن يــترك وشأنه لتكوين أو نمــــو الجــانب المزاجــى الــذى يمكنــه مــن إدراكــه والتعرف عليه عن طريق مدى تــأثر الفــرد بــالمثيرات المحيطــة بــه ، ومدى انفعاله بها . بــل لابــد مــن التــأديب والتــهذيب والتعليــم حتــى يستطيع أن يستقبل المثيرات اســتقبالاً يتناســب وحجــم وقــدرة المثــير. وإلا إذا ترك الإنسان وشأنه فى هـــذا الأمــر بــلا مواقــف اجتماعيــة أو خبرات حياتية أو بغير سياسة أو بدون تعليـــم فإنـــه يصبــح علــى غــير ما هو عليه بعد التأديب . كما يوضح لنـــا - أيضــاً - دلالــة كلمــة أنـــه مطبوع على الخلق ؛ بأنه لديه القابليـــة للاكتســاب والتعلــم الــذى مــن شأنه أن يسهم بدرجة كبيرة فى تكويـــن خلقــه أى تكوينــه ونمــوه فــى الجانب الانفعالى لديـــه .

الصحة النفسية

ويتناول " مسكويه " مجـالناشر : مكتبة الأنجلو المصرية الصحـــة النفسية تحت عنوان " السعادة "[١] ويرى أنها أهم مطلب فى حياة الإنســان لأنها تحقق ما يمكن أن نطلق عليه وفق مصطلحات العصر " جودة الحيــاة للإنسان " وهى تتحقق على مستويين؛ الأول : الإنفعالى ، والثانى : الفعلــى ، وهو المستوى الذى يستطيع الإنسان أن يحقق الســعادة عــن طريقــه ، بمعنى أن الإنسان عندما يحقق لذة ذات صفة انفعالية، فهو لا يحقق الراحـة و الاستقرار النفسى ، لأن مثل هذه اللذة عرضية، وهى كــل لــذة تقــترن بالشهوات الحسية التى سرعان ماتزول . بل قد تنقلب هذه اللذة فى نهايـــة الأمر إلى الإحساس بالألم .

بينما يحقق المستوى الثانى : " الفعلى" - اللذة الذاتية - والتى بـــها يحقق الإنسان الراحة والاستقرار النفسى ذلك لأن لـــذة هــذا المســتوى لا تصير فى وقت آخر غير لذة، ولا تنفصل عن حالتهما ، بل هى ثابتة أبــداً ، وعندئذ يتمتع الإنسان باللذة الذاتية لا العرضيـــة ، والعقليــة لا الحسـية ، والفعلية لا الانفعالية ، وتلك التى يتحقق من ورائـــها الســـواء النفســى . ويعتمد فى بيان أسس تحقيق السواء النفسى - السعادة - علـــى وجــهات نظر الحكماء الذين يرون أن اللذة الصحيحة هى التى تحول الإنســـان مـــن شعور الحاجة والنقص إلى الشعور بالإشباع والتمام ، ومن المرض إلـــى الصحة ، وتحول النفس من الجهل إلى العلم ، ومن الرذيلة إلى الفضيلـــة ،

---

(١) تهذيب الاخلاق ص (١٠٤ - ١٠٧)

وبناء على هذا يستطيع الإنسان أن يستقر ويهنأ ويهدأ بالراحة والطمأنينة، حيث يتم التوافق للغنسان مع الحالة الثانية التى ينقلها إليها .

ويؤكد " مسكويه " أن تحقيق الصحة النفسية – السعادة – يحتاج ضمن ما يحتاج إلى قوى النفس العاقلة ، ذلك لأن قوى النفس الشهوانية تسعى إلى تحقيق اللذة الحسية ، وأنه إذا استجاب الإنسان لتلبية رغبات هذه النفس وأفرط فى إشباعها أدى ذلك إلى استحسان كل قبيح ، ويصبح بعد ذلك غير قادر على إدراك الخطأ والقبيح حتى تدركه الحكمة باستخدام قوى النفس العاقلة ، حيث يدرك عن طريقها أنه قد أوقع نفسه فيما لا ينبغى له أن يقع . الأمر الذى يمكنه من عدم الإغراق فى شهوات النفس ، وعندئذ يحقق قدراً من السواء النفسى أو ما يطلق عليه – هو – السعادة.

ولهذا يعود فيؤكد على أن اللذة الفاعلة هى المصدر الحقيقى لتحقيق الصحة النفسية – السعادة – أما من سعى لتحقيقها عن طريق اللذة الانفعالية فإنه لن يحققها بل يعرض نفسه للاستمرار فى الاضطراب والقلق، لأن اللذة الانفعالية لذة ناقصة عرضية والتى بها يحقق الشقاء .

هذا ؛ ويشير إلى أن الإنسان يستطيع بالنفس العاقلة أن يحقق اللذة العقلية والتى يدفع بها قوى النفس الشهوانية ويتمكن من حسن التصرف بالمعرفة والتمييز والصبر .

ويرى أنه يمكن أن يتحقق السواء النفسى للإنسان عن طريق استخدام الوالدين لأساليب التربية والتنشئة الاجتماعية والشريعة

الإلهية والدين القيم منذ بداية إدراكه للحياة أى منذ طفولته ، فيصل عن طريق ذلك كله إلى قدرٍ من الحكمة التى بها يتولى تدبير أمره إلى آخر العمر ، فضلاً عن التزام الإنسان بالأفعال الخيرة والفاضلة ، وأن مثل هذا الإنسان لا يسر نفسه فقط بل يسر غيره بأفعاله معهم ، فيسعى غيره إلى التعامل معه ، ومصادقته ، والأمر يكون على خلاف ذلك بالنسبة للإنسان غير السوى .

هذا ؛ ويؤكد أيضاً على أهمية ارتباط الإنسان بالشريعة الإسلامية ، حيث يرى أنها تمكن الإنسان من ضبط النفس والمحافظة على صحتها ، لأنها الوسيلة الوحيدة الفعالة التى يتم عن طريقها تحقيق السواء النفسى للإنسان دون شك . وهو عندما يتناول موضوع الصحة النفسية للإنسان يركز على أهمية العافية بها لما لها من أثر على صحة البدن . حيث يقول : " إن النفس متى تعطلت عن النظر ، وعدمت التفكير ، والغوص فى المعانى تبلدت ، وانقطعت عنها مادة كل خير . وإذا ألفت الكسل ، وتبرمت بالروية ، واختارت العطلة قرب هلاكها لأن فى عطلتها هذه انسلاخاً من صورتها الخاصة " .

الأمراض النفسية

يتناول " مسكويه " فى مقاله (دواء النفوس) الأمراض النفسية التى تلحق بالنفس ، وأسبابها ، وعلاجها وذلك بعد الوقوف على تشخيصها . وهو يرى أن النفس متعلقة بصاحبها ، وهى متغيرة بتغيره ، ويبدو هذا فيما يظهر منها من أفعال تدل على مرض نفسى . ويذكر لنا من علامات الاضطراب النفسى ومظاهره :الغضب ، والحزن ، والعشق ، وعلامات قوة دفع الشهوات التى تبدو على بدن الإنسان ، فيضطرب ، ويرتعد ، ويحمر ، ويسمن . بالإضافة إلى أنواع التغير المشاهد بالحس .

ويركز " مسكويه " على ضرورة التعرف على أسباب الأمراض إذا بدا على الفرد بعض المظاهر السابقة الذكر ، ويرى أن أسباب المرض قد تكون من نفوسنا ، كالفكر فى الأشياء الرديئة واستمرارية التفكير فيها . وكاستشعار الخوف ، أو الخوف من الأمور العارضة والمرتقبة ، أو قوة دفع الشهوات فوق العادة ، حيث إن معرفة الأسباب تمكننا من علاجها بما يخصها من الدواء . ثم يضرب لنا مثالاً آخر للبحث عن الأسباب التى تؤدى إلى تغير الحالة النفسية من الاستقرار إلى الاضطراب الذى يوصل إلى المرض كالمزاج ، أو حالة الضعف التى تسود النفس بسبب ضعف حرارة القلب ، والكسل والرفاهية وغيرها من الأسباب التى يتم عن طريقها معرفة كيفية العلاج .

ويشير " مسكويه " إلى أهمية إدراك الفرق بين الجانب الوقائى ، والجانب العلاجى عندما رأى أن طب الأبدان ينقسم إلى قسمين : أحدهما

حفظ صحتها إذا كانت حاضرة ، والآخر ردها إليها إن كانت غائبة . وكذلك الأمر بالنسبة لطب النفس " وجب أن يقسم طب النفوس إلى هذه القسمة بعينها ، فنردها إذا كانت غائبة ، ونتقدم فى حفظ صحتها إذا كانت حاضرة".

هذا ، وقد عرض " مسكويه " عددا من الأمراض النفسية التى يصاب بها الإنسان فى حياته . وهو من خلال عرضه يعدد الأسباب النفسية التى تؤدى إلى إصابة الإنسان بالمرض ، ويبين كيفية علاجها ، ثم يذكر لنا أنواعا من الأمراض ومنها :

الجبن:(١)

ويعرف هذا المرض بقوله :" سكون النفس عندما يجب أن يتحرك فيه ، وبطلان شهوة الانتقام ومن هذا يفهم أن الجبن كحالة نفسية مرضية يصاب بها الإنسان فى بعض مواقف الحياة تمنعه من الإتيان بالسلوك الذى يدافع به عن ذاته بل يصل الأمر الى حد فقدان الرغبة فى الانتقام لما أصاب الذات من ألم فى مثل هذا الموقف.

ويرى أنه يترتب على أصابه الإنسان بهذا المرض عدد من النتائج منها، إهانة النفس ، وسوء العيش ، وطمع طبقات الأنذال وغيرهم من الأهل والأولاد والمعاملين ، وقلة الثبات والصبر فى المواطن التى يجب فيها الثبات . فضلا عن الإحساس بالكسل ، والركون إلى الراحة ،

(١) تهذيب الأخلاق ص (٢١٤)

والمرض بكل رذيلة ، والدخول بالنفس والأهل والمال فى مجـــالات تتسـم بالقبح والفحش ، والشتم ، والقذف ، واحتمال كثـير مــن الظلـم ، وقلـة الإحساس والضيق بكل ما يأنف منه الإنسان العادى الصحيح .

ومن هذا يبدو واضحاً أن هذا المرض -" الجبن "- لا يعنى فقط توقـف الإنسان عن ممارسة حياته بشكل وصورة طبيعية . بل يورثه كثـــيراً مــن الصفات الذميمة السيئة التى تبعـــده عــن دائـرة العلاقـات الاجتماعيـة والإنسانية التى تشكل أساساً وضرورة لإشباع حاجـــات الإنســان ونمــوه وتطوره.

ويقترح " مسكويه " لعلاج هذه الحالة النفسية التى قد تصيب الإنسان فى معترك الحياة بأن يأخذ الإنسان بأضداد أسباب حدوثها ، وكذلك بإيقــاظ النفس من حين لآخر حتى لا يقع فريسة لمثل هذا المرض ودعوتـــه إلــى ممارسة الحركة الطبيعية فى الحياة ، وألا يستسلم الإنسان لما قد يصبه فـى الحياة من ضعف أو فتور.

الغضب :

يتناول " مسكويه " (الغضب[1]) كحالة مرضية تنتـاب الإنســان فــى حياته ويبدأ بتحديد المقصود بالغضب، فيرى أنه " حالة انفعاليــة تدعـــو الفرد للخروج عن حالة الاعتدال " فتدفعه لإصدار أفعال كثيرة غيرة ســوية. وهذه الحالة تؤثر بالدرجة الأولى على نفسه ، ثم على غيره من المحيطيـن

---

(١) تهذيب الأخلاق ص (٢١١ : ٢١٣)

به، وممن يتعاملون معه ، ويبدو هذا فى صورة الاعتداء عليهم بلسانه ، وبيده، وقد يصل الأمر بالإنسان الذى أصيب بالغضب الى الإتيان بأنماط سلوكية تخرج عن دائرة الإدراك العقلى ، وتتلف ما حوله من أشياء مادية ومعنوية .

ويرى أن حالة الغضب هذه تصيب النساء أكثر منها فى الرجال، وفى المرضى أقوى منها فى الأصحاء ، وعند الصبيان أسرع منها عند الرجال ، والشيوخ أكثر منها عند الشبان . ويعتبرها - حالة الغضب - ملازمة للشخص بصفة دائمة . وهذه الحالة المرضية - الغضب - تجلب لصاحبها إفساد العلاقة بينه وبين أهله وذويه وأصدقائه وكل من يتعامل معه ، وتؤدى إلى فقدان الثقة فى غيره من الناس ، وبذلك يبتعد عن حالة السرور ودائماً تجد صاحبها فى حالة من الحزن والاكتئاب .

ويعرض لبعض الأسباب التى تؤدى إلى الغضب عند بعض الأنماط من الشخصية الإنسانية ، كالشره الذى يغضب لعدم تلبية ما يشتهى من الطعام والشراب ، والبخيل الذى يغضب من فقدان ما يملك من المال ، والعظيم الذى يبلغه الانتقاص منه والعيب فيه .

ويذكر أن من علامات الغضب ومظاهره : ارتفاع ضغط الدم، والرغبة فى الانتقام ممن أغضبه ، والتربص به لإيقاعه فى الخطأ، والنيل منه ، وإطلاق اللسان بالسب والإهانة ، وامتداد اليد لإيذائه ، وسوء المعاملة، وعدم التهيؤ لمساعدته حالة وقوعه فى مشكلة ما .

ثم يبين لنا كيفية مواجهة وعلاج حالة الغضب التى تنتاب الإنسان خلال ممارسته لأدواره فى الحياة ، فيرى ضرورة معرفة الأسباب التى تؤدى إلى الغضب والعمل على تلافيها والبعد عنها ، والصفح عمن تسبب فى إثارته وإدخاله فى حالة الغضب ، والروية فى إتخاذ القرار حيال مصدر الإثارة والغضب ، لاتخاذ الأسلوب الأمثل للقضاء على أسباب الغضب نهائيًا ، واستخدام أسلوب التغافل وعدم التركيز على مصدر الإثارة وإهماله . الأمر الذى يؤدى بالإنسان الذى أصيب بالغضب إلى تهدئة النفس وسكونها ، مما يساعد الإنسان على الخروج من هذه الحالة إلى حالة السلام النفسى فتبطل شهوة الانتقام من مصدر الغضب ، وتستريح النفس من الإثارة السلبية المترتبة على إصابة الإنسان بالغضب .

الخوف :

يتعرض " مسكويه " للكتابة عن الخوف[1] كأحد الحالات النفسية التى تصيب الإنسان فى بحياته ، ويبدأ بتحديد المقصود بالخوف ؛ فيرى أنه " الخوف الشديد فى غير موضعه " أى يصاب بالإضطراب الشديد بسبب أشياء لا ينبغى أن تحدث مثل هذا الاضطراب ومن أجل ذلك اعتبره حالة مرضية.

ويتعرض بعد ذلك لذكر أسبابه التى منها ، توقع مكروه ، انتظار محظور ، والتوقع والانتظار لما يحدث فى مستقبل الزمان .

---

(١) تهذيب الأخلاق ص (٢١٥ : ٢٢٤)

ويرى أنه يجب على الفرد العاقل ألا يخاف من الأحداث اليسيرة أو العظيمة ، أو التى يظن أنها ضرورية أو ممكنة الحدوث ، وسواء كان مصدرها نحن أو غيرنا ، مادامت أسبابها معروفة ومعلومة . ذلك لأن الأحداث الممكنة الوقوع ، قد تقع وقد لا تقع ، ومن هنا كان على الإنسان ألا يضع نفسه فى دائرة الخوف . بل يجب عليه ألا يصمم على أنها ستقع . الأمر الذى يؤدى إلى الوقوع فى الخوف الحقيقى .

ثم يضع سبل العلاج من الخوف إذا ما تملك إحساس الفرد من وقوع الأحداث التى تجعل الإنسان فى دائرة الخوف - منها أن يكون الخوف من المكروه على قدر حدوثه ، وأن يحسن الظن بالحياة ، فيشعر بالعيش الجميل، وأن يتحلى بالأمل القوى ، وترك الفكر فى بكل ما يمكن أن يقع من المكاره، أو من الظروف المحيطة بنا والتى نخاف عواقبها ، كأن لا تقدم على أمر لا تؤمن عواقبه ، وأن نترك الذنوب ونبتعد عن أسباب ارتكاب الجنايات .

هذا ؛ وينتقل " مسكويه " بعد ذلك إلى عرض أحد أنواع الخوف التى تنتاب الإنسان خلال حياته وهو " الخوف من الموت " ، فيرى أن هذا النوع من الخوف يحدث لمن لا يدرى ما الموت أو لمن لا يعرف أين تصير نفسه. بمعنى أنه من يعلم ما الموت ، وأين تذهب نفسه بعد الموت لن يصاب بهذا النوع من الخوف . كما نجد أن "مسكويه" يرى أن الموت موتان ؛ موت إرادى ، وموت طبيعى . ويتمثل الموت الإرادى فى قدرة الفرد على إماتة الشهوات ، وترك التعرض لها ، وأن الموت الطبيعى هو

مفارقة البدن .

ويذكر لنا الأسباب التى تدعو الإنسـان للإحساس بخـوف المـوت ، منها من يظن أن للموت ألماً عظيماً - غير ألم المرض الذى قـد يسـبقه ، وقد يؤدى إليه - ومن يعتقد أن هناك عقوبة ستحل به بعد الموت ، أو مـن لا يدرى ماذا سيحدث بعد الموت ، أو أسفه على ما خلف من متاع الدنيـا . ويرى أن كل ما تقدم يعتبر ظنون باطلة يجب عدم الاعتقاد فى صحتها لأنـه لا حقيقة لها .

وينتقل بعد ذلك لبيان حقيقة الموت كما يراها ويعتقدها . حيث يؤكد " أن الموت ليس بشيء أكثر من ترك النفس استعمال آلاتها " وهى البـدن . ويضرب المثل لبيان حقيقة الموت كما يراها ويعتقدها لبيان هذا بقولـه " كما يترك الصانع استعمال آلاته " .

ثم يعرض وجهة نظره فى النفس . حيث يرى أنـها " جوهـر غـير جسمانى ، وليس عرضًا ، وأنها غير قابلة للفساد " ويرى أن هناك كثـيراً من وجهات النظر فى هذا الأمر ، وكثيراً من الشروح التى قدمتـها العلـوم المختلفة لبيان كنه النفس وحقيقتها .

ويؤكد على أنه من يدرك كلا من حقيقة الموت ، وجوهـر النفـس ، اطمأنت نفسه ، وعلم أن النفس مفارقة البدن بذاته ، وخواصه ، وأفعالـه ، وأثاره وعندئذ لا يصاب بخوف الموت ، حيث إن من يعلم إلى أيـن تصـير النفس ، ويعى كل ماتقدم من بيان لجوهرها ، وحقيقـة الجسـد ، فإنـه لا

يخاف الموت . والعكس على خلاف ما تقدم ، وعندئذ يكون سبب الخـــوف ومصدره هو جهل الإنسان بحقيقة الحياة ، وحقيقة الجسم والنفس . ومـــن أجل هذا سعى العقلاء إلى طلب العلم والمعرفة ، ورأوا أن الراحة الحقيقيـــة تكون من الجهل، والتعب الحقيقى الذى يصيب الإنسان هو تعـــب مصـــدره الأساسى جهل الإنسان بحقيقة ما تقدم .

الحزن :

ويتناول " مسكويه " الحزن[١] كأحد العوامل أو المتغيرات التى تنتـــاب الإنسان فى حياته وقد تؤدى إلى مرضه نفسياً ، ويعرفه بأنه " ألم نفســـانى يعرض لفقد المحبوب ، أو فوت المطلوب " وهو بذلـــك يشـــير إلـــى أهـــم المسببات للحزن وهى بعد المحبوب ، وعدم وصول الإنسان إلى مـــا كـــان يتطلع ويسعى إليه . هذا ؛ ويضيف عدداً آخر من الأسباب منها : عدم قدرة الإنسان على الحصول على ما يشتهى وحسرته على ما يفقده منها .

ويقدم بيان لكيفية التغلب على ما ينتاب الإنسان من حزن على فقـــد من أحب ، أو ما فاته من ملذات الدنيا ، وذلك عن طريق إدراك أن جميـــع ما فى عالم الكون غير ثابت ، ولا باق وعندئذ يدرك بعقله أنه لا ينبغـــى أن يتطلع - طمعًا - فيما لا يقدر الحصول عليه - المحال - فتســـتقر نفســـه وتهدأ وتبتعد عما يحزنها أو ما يسبب لها ذلك .

وإذا أراد الإنسان أن يتحصن - إلى حد ما - ضد ما يثير نفسه فـــى

---

(١) تهذيب الأخلاق ص (٢٢٤ : ٢٢٨)

الحياة الدنيا ، ويؤدى به إلى الحزن ، عليه أن يكون سعيه لمتطلباتها ، وتحقيق ما يتطلع إليه يتفق مع ما لديه من إمكانياته وقدراته ، وان استطاع أن يحقق اشباعاته من هذه المتطلبات عن طريق أخذ مقدار ما يناسبه من الحاجات مما يدفع عنه الإحساس بالألم ، ويوقع نفسه فى حالة من الحزن ، كأن ياخذ من الطعام ما يسد إحساسه بألم الجوع ، ومن الملبس ما يغطى جسده ويستره . وأن يترك فكرة الاستكثار لأن الأخيرة قد تدفع الإنسان إلى المباهاة والإفتخار ، فإذا ما فاتته ولم يحققها أصابه الأسف ودفع بنفسه إلى مشاعر الحزن .

هذا ؛ ويقدم دليلاً لإثبات صحة وجهة نظره فى أن الإنسان يستطيع أن يعالج ما قد يصيبه من حزن عن طريق استشعار جمال واقعه ، والرضا به ، فإن هذا من شأنه أن يجعل الإنسان فى حالة من السرور بعيداً عن أسباب الحزن . ويرى أنه إذا لم يستطع الإنسان أن يدرك هذا الأمر فى حياته ، فليطلق نظرة لاستشعار واقع الناس فى حياتهم ومعايشهم فإنه سيعلم تمام العلم صحة ماتقدم . حيث يجد أن هؤلاء على اختلاف حرفهم ومذاهبهم وطبقاتهم يستشعرون الراحة والإطمئنان لرضاهم بواقعهم واستشعارهم بجماله ، وعندئذ يبتعد عن الوقوع فى دائرة الحزن .

ويؤكد " مسكويه " على أن الإنسان هو الذى يجلب لنفسه حالة الحزن، ويدعم هذا الرأى بوجهة نظر " الكندى " فى هذا الأمر . بل ويتفق معه فيما يقول حيث يريان أن الحزن ليس ضرورياً فى حياة الإنسان كما أنه ليس طبيعياً فى تكوينه . ومن أجل هذا فإن ما يحدث من حزن للإنسان

هو مصدره . حيث إن الإنسان إذا فقد ملكاً أو طلب أمراً ولم يجـــده لحقــه الحزن، ثم نظر فى حزنه وجد أن أسباب حزنه ليست ضرورية لأن غالبيـــة الناس ليس لهم ذلك الملك ، ومع ذلك فهم لا يضعون أنفسهم فـــى دائــرة الحزن .

وواقع الأمر فى حياة الإنسان يؤكد صحة وجهة نظـــر " مســكويه " وغيره ممن تناولوا هذه الحالة بالدراسة والبحث . حيث نلاحــظ أن كثـيراً من الناس قد فقدوا الأعزاء من أهليهم وذويهم ، وسرعان مـــا يمارســون حياتهم كأن لم يحدث لهؤلاء الأعزاء أو الأحباب أو الأصدقاء شىء أو فقــد وكذلك من فقدوا كثيراً من مقتنياتهم الغالية الثمينـــة أو المـــال والضيـــاع والمقتنيات الغالية .

ولهذا فإن " مسكويه " يرى أن الحزن حالة نفسية مرضية عارضـــة غير طبيعية فى تكوين الإنسان ، ولا يستطيع أن يدرك هذا المفهوم إلا مـــن استعمل عقله فيما يظن أنه كان ينبغى أن يكون لـــه ، وأن يكـــون معـــه بصورة أبدية .

متغيرات نفسية

يتناول " مسكويه " عدداً من المتغيرات النفســـية التـــى تســـهم فـــى تحديد نمط الشخصية الإنسانية منـــها ؛ العُجــب[١] ، الـــذى يحـــدده بأنـــه "ظن كاذب بالنفس فى استحقاق مرتبة هى غـــير مســـتحقة لـــها " ويـــرى

(١) تهذيب الأخلاق ص (٢٠٥)

أنه ينبغى علـــى الإنســـان أن يكاشــف نفســـه بعيوبــه ونقائصــه التــى تعترى شخصيته لأن هذا مـــن شـــأنه أن يجعلــه أكــثر إدراكــاً بحاجتــه لغـــيره مـــن البشـــر لأن الله ســبحانه وتعـــالى قـــد وزع القـــدرات والإمكانيات على البشر بقدر . الأمر الـــذى يجعــل الإنســـان الفــرد فـــى حاجة إلى فضل غيره وعندئذ يبتعد تماماً عـــن العجــب والغــرور الــذى قد يصيبه ، ويصبح محدداً لنمـــط شـــخصيته .

كما يعتبر أن الفخـــر[١] متغـــير آخــر مـــن المتغـــيرات التـــى قـــد تصيب الإنسان فى حياته ، ويحدده بأنـــه " المباهـــاة بالأشـــياء الخارجــه عنا " حيث إن الإنسان الذى يباهى بما ليـــس فيـــه فإنـــه يبـــاهى بمـــا لا يملكه لأن الأشـــياء المتداولـــة بيـــن النـــاس لا ينبغـــى أن يبـــاهى بـــها الإنسان لأنها إلـــى زوال .

ومن هذا يتضح أن الفكر الاسلامى قد لفت النظـــر إلـــى عـــدد مـــن المتغيرات النفسية الجديـــدة التـــى تشـــكل شـــخصية الإنســـان وأن مثـــل هذه المتغيرات النفسية التى قد تنتاب الشـــخصية المســـلمة تضـــر بـــها . ولهذا حذر منها الدين حتى تكون النفـــس ســـوية ، وأن تعيـــش حياتـــها وهى على أفضـــل مســـتوى مـــن الصحـــة النفســـية الســـليمة وذلـــك إذا استطاعت أن تبتعد عن مثل هـــذه المتغـــيرات .

---

[١] تهذيب الأخلاق ص (٢٠٥)

المزاح :

ويشير " مسكويه " إلى المزاح[٢] الذى يحدث بين الناس كمتغير من المتغيرات التى تحدث أثرا فى النفس . ويرى أن المعتدل منه يحقق الهدف من ممارسته ، ويكون محمودا . بينما الذى يغالى الفرد فى استخدامه ويستمر فى ممارسته بإفراط حتى لا يستطيع الفرد أن يقف عند حد معين منه ، فإن مثل هذا النوع من المزاح يؤدى إلى آثار نفسيه سيئة . حيث إن المبالغة فى ممارسته بين الأفراد تؤدى إلى إثارة النفوس وغضبها . بل وقد تؤدى إلى تكوين وإبقاء قدر من الحقد والكره على من يمارسه بهذه الطريقة .

التيه :

ويتناول " مسكويه "التيه[١] كمتغير نفسى من المتغيرات التى قد تنتاب الناس فى حياتهم والذى يعرفه بأنه متغير زائل ، غير موثوق ببقائه، ويقترب من العجب ، إلا أن الفرق بينهما أن المعجب يكذب نفسه فيما لا يظن ، أما التيه يته على غيره .أى أنه يدرك حقيقة نفسه ، فلا يكذبها بفعله الذى يوصف بالتيه على غيره من الناس .

ويشير "مسكويه " بذكر هذا المتغير إلى حالة نفسية كثيرا ما تنتاب النفس البشرية إذا ما أطلق لها العنان فيما تتطلع إليه من إمتلاك الأشياء وتحقيق الرغبات والشهوات . ويذكر لنا أن الإنسان يمكن أن يتخلص من

---

(٢) تهذيب الأخلاق ص (٢٠٧)

(١) تهذيب الأخلاق ص (٢٠٧)

هذا الإحساس قبل أن يمتلك النفس ويستبد بها .

العشق :

كما يتناول متغير آخر من المتغيرات التى تنتاب الإنسان فى حياته وهو " العشق "[1] ، والذى يعرفه بأنه "إفراط فى المحبة ، وأنه أخص من المودة ، وذلك لأنه لا يقع إلا بين إثنين فقط ، وهو يقع لمحب اللذة بإفراط وهو حب مذموم. ولمحب الخير بإفراط وهو محمود "

ويذكر لنا أن العشق منبثق من المحبة ، وأنه على مدى ما يناله العاشق من المعشوق من اللذة والمنفعة ، ولذلك يلاحظ "مسكويه" أن هذا النوع من المحبة يتسم باستمرارية الشكوى ، وتبادل الظلم بين العاشق والمعشوق حسب هدف كلاً منهما . حيث إنه لا يكاد يعتدل مدى اللذة والمنفعة بينهما .

ومن هذا يتضح أن "مسكويه" يعرض للعشق كأحد فروع المحبة التى يزداد معدلهاعن الطبيعى . فضلاً عن أنه يقع بين إثنين لا ثالث لهما ، ولذلك فهى محبة خاصة جداً. كما أنه - العشق - يعتمد على مدى ما يناله العاشق من المعشوق من اللذة المادية ، ولذلك كثيراً ما تحدث الخلافات بين العاشقين.

---

(١) تهذيب الأخلاق ص (١٥١ :١٥٦)

المحبة :

ويتناول "مسكويه " المحبة [٢] كأحد المتغيرات النفسية التى تعترى الإنسان خلال مراحل العمر المختلفة . ويعرض لنا عددا من أنواع المحبة التى قام بتقسيمها على أساس عدداً من الأسباب منها :-

* المحبة التى يكون سببها اللذة : وهذا النوع من المحبة يرى أنه يحدث سريعا ، وينحل سريعا ، حيث إن اللذة سريعة التغير ، وأن الإنسان عندما يسعى لتحقيق هدف بناء على لذة معينة ، فإنه سرعان ما يعود إلى حالته قبل اللذة بعد حصوله عليها .
* المحبة التى يكون سببها الخير : وهى نوع سريع الحدوث إلا أن أثرها يظل باقيا فى نفس الإنسان لمدة طويلة ، ولذلك تنحل هذه المحبة وتتلاشى ببطء .
* المحبة التى يكون سببها المنافع :وهى محبة تتم ببط ء حسب مهارة من يسعى للإفادة منها إلا أنها سرعان ما تنتهى بإنتهاء تحقيق الغرض من إنشائها .
* أما النوع الرابع هى التى تتكون على أساس مختلف الأسباب السابقة ، ولذلك فهى تتكون ببط ء وتتلاشى ببط ء أيضا .

ومن الملاحظ أن "مسكويه " يركز على نوعية المحبة وعلى أسبابها أكثر من التركيز على الأثر النفسى المترتب عليها . إلا أنه فى تحديد كل نوع منها يرى أن مدى مدى استمراريته بين المحبين يعتمد على

(٢) تهذيب الأخلاق ص (١٤٩ :١٥٨)

عمق الهدف من إنشائه ، وكذلك نوعيته .ولهذا نلاحظ أن المحبة التى تنعقد ببط ء وتنحل ببطء هى تلك التى ترتبط بمجالى الخير أو بتركيب مختلف الأسباب التى حددها لحدوث المحبة بين الناس .

التعويض :

هذا ؛ ويشير "مسكويه " إلى "التعويض "[١] الذى يعتبر أحد الحيل اللاشعورية التى أشار إليها علماء النفس فى العصر الحديث ، والتى يستخدمها الإنسان بهدف الوصول إلى قدر من الإتزان النفسى يعينه على استمرارية حياته بما يمكنه من تحقيق أهدافه فى الحياة : حيث يذكر لنا فى معرض حب الوالد لولده هذه الحيلة ، عندما قال " إن الوالد يحب لولده جميع ما يحب لنفسه ، بل ويسعى ...فى تكميله بكل ما فاته من نفسه طوال عمره " .

ومن هذا القول يبدو واضحا أن " مسكويه " يكتب لنا عن متغير من المتغيرات النفسية التى يستخدمها الوالد من أجل تحقيق ما فاته من إشباع حاجات ، أو تحقيق أهداف أو أغراض فى حياته لولده . مدركا تمام الإدراك أن هذا العمل من شأنه أن يحقق قدرا من الراحة النفسية له ولولده .

---

(١) تهذيب الأخلاق ص (١٥٨)

المراجع

١ـ إبراهيم مدكور وآخرون . معجم أعلام الفكر الإنسانى . المجلـد الأول . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤

٢ـ ابن مسكويه . تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق . تحقيق ابن الخطيـب .ط . (١) القاهرة : المطبعة المصرية ، (ب . ت) .

٣ـ ابن مسكويه . تهذيب الأخلاق . بيروت : دار الكتب العلميـة .ط . (١) (١٤٠٥هـ /١٩٨٥ م) .

٤ـ عبد العزيز عزت . ابـن مسـكويه : فلسـفته الأخلاقيـة .ط . (١) القاهرة: مطبعة الحلبى ، ١٩٤٦ .

من الدراسات النفسية
في
التراث العربي الإسلامي

الدراسة الثانية

الدراسات النفسية
عند
"ابن حزم الأندلسي"

(٣٨٤/ ٤٥٦هـ)

تعريف بابن حزم:

هو الإمام الجليل أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم؛ وهـــو أحد أئمة الإسلام، ينتمى إلى مذهبه عدد كبير من أهل الأنـــدلس، وكـــان يطلق على مذهبه " الحزمية". ولد -رحمه الله- بقرطبة وكانت له ولأبيـــه من قبله رئاسة الوزارة، وتدبير المملكة، فزهدهـــا وانصـــرف إلـــى العلـــم والتأليف.

ويؤكد المؤرخون والذين كتبوا عن " ابن حزم " أنه نشأ فى أســـرة تتمتع برغد فى العيش، وسعة فى الرزق، وأن والده " أحمد بن ســـعيد " من أشهر أهل العلم والثقافة، وهذا يعنى أن " ابن حزم " نشأ فى بيت علـــم وثقافة ولذلك اتصف بقدرته العالية فى التأليف.

ويتميز " ابن حزم " بأنه حافظ جيد، وفقيه، وباحث يستنبط الأحكـــام من الكتاب والسنة، والقدرة على النقد، حيث كـــان كثـــير النقـــد للعلمـــاء والفقهاء. ولذلك ظلوا يطاردونه فى بـــلاد الأندلـــس حتـــى توفـــى بقريـــة "منتليشمه" سنة ٤٥٦ هـ عن عمر (٧١) سنة.

هذا؛ وقد اتفق أهل الأندلس على أن " ابن حزم " أجمـــع النـــاس قاطبة لعلوم الإسلام، ولذلك كانت له القدرة الفائقة على استنباط الأحكام من الكتاب والسنة. وقد شهد له شيوخه الذين تعلـــم علـــى يديـــهم بـــالصلاح، والخير والفضل، وحسن الخلق، ورجاحة العقل، والخشوع، وكثرة البكـــاء، والتحرى فيما يسمع.

وقد اشتهر بثقافته الواسعة، وعلمه الغزير ولذلك وصف بأنه موسوعة علمية أحاطت بكثير من المعارف فى عصره. حيث كان على علم واسع باللسانيات، والبلاغة، والشعر، والسنن، والآثار، والأحكام، والفضائل، والملل والنحل ... ويؤكد كل من تناول " ابن حزم " بالدراسة والبحث أنه لم يجد باباً من أبواب العلم إلا وكتب فيه عن فهم وإدراك ووعى.

وقد كان " ابن حزم " يتميز بعدد من الصفات التى أهلته لأن يكون على هذه الدرجة العالية من العلم والمعرفة، كالحافظة القوية، وتناسق الفكر، والتدين والصلاح. حيث كان عاملاً بعلمه، وكان متواضعاً، شاكراً لأنعم الله التى أنعم بها عليه. ومن أبرز صفاته وخلقه العفة والطهر والوفاء، والحزم والشدة فى رده على خصومه.

وله عديد من الكتب والمؤلفات منها ؛ مسائل أصول الفقه، وكتاب الفصل فى الملل والنحل، والتقريب فى حدود المنطق، وطوق الحمامة، وكشف الالتباس ما بين الظاهر وأصحاب القياس، وأخلاق النفس، و البيان فى حقيقة الإنسان، ورسالة فى الأمهات، وأمهات الخلفاء، ومجموعة رسائل ابن حزم منها فى الغناء؛ مباح هو أم محظور؟ فضل الأندلس وذكر رجالها، فصل فى معرفة النفس بغيرها وجهلها بذاتها، مراتب العلوم، المفاضلة بين الصحابة، وأخلاق والسير فى مداواة النفوس، وهو الكتاب الذى اعتمدنا عليه فى محاولة بيان عدد من الدراسات النفسية فى التراث الإسلامى.

هذا ، وقـد بلـغ عـــدد مؤلفـات "ابـن حـزم" حوالـى (٤٦) ستة وأربعون مؤلفـاً، استطاع البـاحثون الحصـول عليـها وتحقيـق بعضها، وقد حقق بعض هـذه المؤلفـات أكـثر مـن مـرة فـى أمـاكن متفرقـة مـن العـالم. ويشـير البـاحثون إلـى أنـه توجـد بعـض المؤلفات المفقـودة لابن حزم، والتـى قـد تبلـغ حوالـى (٨٥) خمسـة وثمانون مؤلفـاً .

وتتضمن هذه المؤلفات كثـيراً مـن الموضوعـات ذات الاتصـال الوثيق بالإنسان وأدبه، وخلقه وسلوكه، والسـير الذاتيـة. هـذا ، فضـلاً عـن اهتمامـه بمختلـف نواحـى الحيـاة الأندلسـية الاجتماعيـة والاقتصادية، والعلمية، والثقافيـة والفكريـة.

كما يسـتنتج مـن قـراءة هـذه المؤلفـات -كمـا اتفـق لـدى الدارسين لابن حزم- انه يتمتـع بمقـدرة عقليـة عاليـة، وفـهم دقيـق شامل، و نقد بصير فضلاً عن التزامـه بالأسـلوب العلمـى فـى تأليفـه. كل هذه الحياة المليئة بمختلف مجـالات الدراسـة والبحـث لابـن حـزم هى التى دعت الباحث إلى الإشـارة إليـه مـن خـلال كتـاب "الأخـلاق والسـير فى مداواة النفـوس" كمحاولة للفـت أنظـار البـاحثين إلـى هـذه التـراث العظيم لدراسـتـه وتحليـلـه بـهدف الوصـول إلـى العديـد من الدراسات فى مجال علـم النفـس مـن وجهـة نظـر هـذا العالم الجليـل.

متغيرات ذات ارتباط بالصحة النفسية

تناول "ابن حزم" فى كتابه " الأخلاق والسير فى مداواة النفوس" بعض العوامل ذات الارتباط بعلم النفس على سبيل المثال ، نجد أنه قد تحدث عن عوامل الراحة النفسية * للإنسان. وهو فى حديثه عن هذه الأسباب يتعرض بالشرح والتوضيح لعلاقة الإنسان المؤمن بربه وخالقه، ومدى قدرة الفرد على ضبط النفس حيال مختلف مثيرات الحياة التى لا تتفق وقيم ومعايير الدين الحنيف.

وهو يرى أن الإنسان المؤمن يستمد قدرته على ضبط النفس من الخوف من الله فى كل ما يصدر عنه من أقوال و أفعال، ويذكر لنا أن هذا الضبط يتم عن طريق نهى النفس عن الهوى، ذاكراً أن هذا يتم بردعها - أى النفس- عن الطبع الغضبىّ والشهوانى. وهو بذلك يبين لنا أن للنفس نزعات غضبية وأخرى شهوانية وأن الإنسان إذا استطاع أن يمنع نفسه عن الاستجابة لأى من نزعات النفس الغضبية أو الشهوانية استطاع أن يحقق قدراً كبيراً من الراحة النفسية.

ويذكر لنا "ابن حزم" أن الإنسان المؤمن يستطيع أن يجنب نفسه الآثار المترتبة على استجابة الهوى التى تعنى الاستجابة للنفس الغضبية أو الشهوانية باستخدام المنطق الموضوعى الذى يقدر عليه الإنسان، ويتميز به عن باقى مخلوقات الله.

---

* الأخلاق والسير فى مداواة النفوس ص ص (١٩، ٢٠)

ويعتمد فى بيان وجهة نظره هذه على ما ورد فى القرآن الكريم من قوله تعالى " وأما من خاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى " (النازعات : ٤٠ ، ٤١). وكذلك حديث الرسول ﷺ لا تغضب " وأمره عليه السلام " أن يحب المرء لغيره ما يحبه لنفسه" على أساس أن هذين الأمرين يحققان للإنسان كل فضيلة والتى بهما يستطيع الإنسان أن يشعر بالراحة النفسية. ذلك أن فى نهيه -عليه السلام- عن الغضب ردعاً للنفس ذات القوة الغضبية عن هواها. وفى أمره -عليه السلام- أن يحب المرء لغيره ما يحبه لنفسه ردعاً للنفس عن القوة الشهوانية. الأمر الذى يجعل الإنسان على درجة من السواء النفسى. حيث يقيها بهذا الردع وقوعها فى دائرة القلق والاضطراب.

الهم:

هذا كما تناول " ابن حزم" الهم * كأحد المتغيرات النفسية المسببة للألم والاضطراب النفسى للإنسان، وشغل نفسه بالتفكير فى كيفية إزالته حتى يمكن أن ينعم الإنسان بالراحة النفسية. ويؤكد على أن الإنسان، أياً كان هذا الإنسان لا يسعى إلى هم أبداً عندما قال: " ليس فى العالم -مذ كان إلى أن يتناهى- أحد يستحسن الهم" ومن أجل هذا رأى أن السبيل الأفضل لطرد الهم وإزالته من النفوس هو التوجه إلى الله سبحانه وتعالى، وذلك بالعمل للآخرة. على أساس أنه عندما تدبر دور المال فى إزالة الهم، وجد أنه ينحصر

* الأخلاق والسير فى مداواة النفوس ص ص (١٣،١٥)

فى مجال طرد الهم الناتج عن الإحساس بالفقر، أما الهم الذى تتعدد وتتنوع مصادره فإن الله سبحانه وتعالى كفيل بإزالته إذا لجأ العبد إلى ربه .

ولذلك يؤكد "ابن حزم" على عملية توجه الإنسان إلى الله بالعمل المخلص الصادق لنيل الثواب فى الآخرة، وأنه هو السبيل الوحيد لإزالة الهم. بل والإحساس بالسرور على اعتبار أن الإنسان فى حياته يمتحن فى كثير من الأمور المرتبطة بدرجة شعوره بالأمن والاطمئنان. فإن أصابه مكروه أو أذى، وتوجه بالعمل الصادق إلى الله فإنه سبحانه وتعالى قادر على إنزال السكينة عليه. فضلاً عن اعتقاده الجازم بنيل ثواب ما أصابه فى الآخرة، فيتحول الإحساس بالألم إلى الإحساس بالسرور. وفى قصص الصحابة رضوان الله عليهم ما يؤكد وجهة نظر "ابن حزم" هذه.

وبناء على هذا فإننا نجد أن الإنسان المؤمن لديه من القدرة ما يمكنه من التغلب على الآثار النفسية المترتبة على الأحداث المؤلمة أو ما يواجهه فى حياته من متاعب وهموم، بل تحويل هذه الآلام إلى مشاعر السرور وذلك عندما يضع فى اعتباره ما سيناله فى الآخرة من خير جزيل عند الله سبحانه وتعالى جزاء ما صبر.

المحبة:

ويشير "ابن حزم" إلى عامل نفسى هام من العوامل التى تميز

الإنسان عن غيره من مخلوقات الله، وهو عامل المحبة * ويتحدث عن أسباب حدوثها فى النفس البشرية. ويرى أن الاستحسان هو فى مقدمة الأسباب التى تدعو الإنسان إلى حب غيره. ويذكر أن هذا الاستحسان يتمثل فى إدراك الفرد للجوانب الحسنة والإيجابية فى المنظور، وكذلك استحسان أخلاقه. الأمر الذى يدعو الإنسان إلى السعى لمصادقة المنظور ثم الإعجاب به بما يدعو إلى الرغبة فى استمرارية النظر إلى المحبوب، والقرب منه، والألفة به، والإحساس بالوحشة إذا غاب عنه.

هذا ؛ ويزيدنا "ابن حزم" بعديد من العلاقات التى تشير إلى أن "س" من الناس محب لـ "ص" منهم فيذكر أن المحب يرغب فى أن يكون ذا حظوة من محبوبه، وأن يتميز بمكانة رفيعة عنده، وأن ينعم بالمجالسة معه، والحديث إليه، وأن يشعر بمؤازرته. ثم يبين لنا أيضاً أن أطماع المحب تزداد يوماً بعد يوم فى محبوبه؛ و يبدو هذا فى رغبته فى الالتصاق به، ومخالطته لجسمه، والاستكثار من استمرارية هذا الاتصال. ولذلك نجد أن الأبوين يمارسان هذا التلامس مع أطفالهم فيدلان بذلك على حبهما لهم، فضلاً عن التقبيل والعناق كمؤشرات لحبهما للأبناء.

ويتحدث -أيضاً- عن درجات المحبة، فيرى أن من درجاتها " الكلف" وهى درجة يصل بها المحب إلى شَغل باله بمن يحب. ويذكر لنا أن هذه الدرجة يتميز بها العُشاق، وكثيراً ما تُذكر فى باب الغزل. ثم يشير إلى درجة أخرى وهى " الشغف" وتتمثل هذه الدرجة

---

* الأخلاق والسير فى مداواة النفوس ص ص (٥١،٥٦)

فى بيان عدد من المظاهر علـــى المحـــب كامتنـــاع النـــوم عنـــه، وعـــدم الأكل والشرب إلا القليل اليسير، وقد يـــؤدى شـــغف المحـــب بمـــن يحـــب إلى حد الوسواس المؤدى إلـــى المـــرض المفضـــى إلـــى المـــوت. هـــذا؛ وتعتبر هذه الدرجة غاية فى ارتفاع درجـــة المحبـــة.

ومما تقدم يتضح لنا أن " ابن حزم" تناول المحبة كعـــامل هـــام مـــن العوامل النفسية التى تشكل بعداً أساسياً فى حياة الإنســـان وخاصـــة فـــى علاقته بغيره من الناس. ذاكراً أسبابها، ومستوياتها، ومظاهرها.

الغيـــرة:

يذكر " ابن حزم " أن الغيرة عـــامل هـــام يرتبـــط ارتباطـــاً وثيقـــاً بعامل المحبة. حيـــث يـــرى أن ارتفـــاع معـــدل الغـــيرة * يؤكـــد ارتفـــاع درجة المحبة بين المحبيـــن. هـــذا؛ ويحلـــل هـــذا المتغـــير، فيذكـــر أنـــه "خلق فاضل مركب من النجدة والعدل"علـــى أســـاس أن مـــن عـــدل كـــره أن يتعدى حرمة غيره، وأن من يتعـــدى غـــيره إلـــى حرمتـــه. وأن مـــن كانت النجدة طبعاً له، حدثـــت لـــه العـــزة، ومنـــها تحـــدث الأنفـــة مـــن الاهتضام. وعندئذ يتولد لدى مثل هذه النوعيـــة مـــن البشـــر الإحســـاس بالغيرة التى تدفع عن صاحبها وعن مبادئه كل مـــا يســـوء إليـــه.

ومن هذا يفهم أن " ابـــن حـــزم" قـــد تنـــاول عـــامل الغـــيرة مـــن منطلق المفـــهوم الإســـلامى الـــذى يدفـــع الإنســـان إلـــى الحفـــاظ علـــى

---

* الأخلاق والسير فى مداواة النفوس ص (٥٣)

كرامته، وإنسانيته، ودينه، ووجوده عندما يسعى غيره للتعدى على أى بعد من هذه الأبعاد الأساسية فى حياته.

كما يبدو واضحاً أن مكوناتها خيره -النجدة والعدل- فهى عامل بَناء يسهم فى الحفاظ على جوهر وطبيعة الإنسان الخيرة الطيبة النقية، على عكس هذا المفهوم عند أصحاب مدرسة التحليل النفسى. حيث يتولد عنها الحقد، والحسد، وما يترتب على ذلك من الرغبة فى الإيذاء والضرر، بل والتدمير.

سمات الشخصية

ويذكر " ابن حزم" عدداً من المتغيرات النفسية التى تبرز أهم سمات* شخصية الإنسان ومن هذه السمات ؛ الثبات وهو متغير يشير إلى مدى صحة أخلاق الإنسان على خلاف اللجّاج الذى يعنى عدم الثبات والاستقرار والذى يكون نتيجة اعتقاد الإنسان بباطل أو فساد. الأمر الذى يدعو صاحبه إلى عدم الالتزام بقول واحد أو سلوك محدد فى موقف معين. كما يضيف متغيراً أخر وهو الاضطراب ويعرفه بضده وهو الثبات.

ويتناول سمات أخرى ؛ كالعقل ، ويبرزه عن طريق استعماله ووظيفته ويؤكد على هذه الوظيفة التى تعين الإنسان على اجتناب المعاصى والرذائل. ويعتمد فى تأكيد وجهة نظره هذه على نص القرآن الكريم. حيث يرى أن من يعصى الله لا يعقل استناداً إلى

• الأخلاق والسير فى مداواة النفوس ص ص (٥٧،٥٩)

قوله تعالى " وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا من أصحاب السعير " (الملك: ١٠).

ويتناول أيضاً - الحمق - كسمة مضادة للعقل. حيث يرى أن الحمق يدعو الإنسان إلى ارتكاب المعاصى والرذائل، ولذلك اعتبر " ابن حزم" أن الحمق ضد العقل لأنه يجعل الإنسان لا يحسن استخدام العقل أو يوظفه توظيفاً صحيحاً. الأمر الذى يجعل صاحبه يخلط فى القول ويناقض فعله قوله.

هذا؛ ويشير " ابن حزم" إلى الدهاء كأحد السمات التى تحدد الشخصية الإنسانية، وقد يتصور بعض الناس أن هذه السمة ترتبط بالمستوى العقلى للفرد. بينما يرى " ابن حزم" أنه ليس من العقل أن يتصف الإنسان بالدهاء، ذلك لأن مثل هذا الشخص ينظر إلى الحياة من جانب واحد فقط. حيث يتمثل فى إحكام أمر الدنيا عن طريق التودد إلى الناس بما يوافقهم، وإن كان هذا بالباطل أو بعدم مراعاة مبدأ العيب. فمثل هذا الشخص يسعى بالدهاء إلى زيادة ماله وتحقيق جاه أو الوصول إلى سلطان بكل الطرق والوسائل بصرف النظر عن صحتها أو بطلانها أو ارتكاب المعاصى أو الرذيلة.

ويقدم عدداً أخر يحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث لتوضيح المفهوم الدقيق لهذه المتغيرات التى تشير إلى الشخصية الإنسانية المحترمة من وجهة نظر " ابن حزم" وهى الحزم، الوقار، والرزانة. حيث يعتبرها محددات للشخصية الملتزمة السوية. وقد اعتبر أن الحزم هو

"السعى فيما ذكر بما فيه". والوقار هو "وضع الكلام موضعه، والتوسط فـــى تدبير المعيشة، ومسايرة الناس المسألة" . والرزانة يعتبرها "مسايرة الناس بالمسألة"، ويوضحها بيان ضدها وهو " السخف".

فضائل * الشخصية وعيوبها

ويذكر " ابن حزم" عدداً من الفضائل ** التى تتميز بها الشـــخصية الإنسانية والتى يعتبرها محددات للشخصية المسلمة. وفـــى مقدمـــة هـــذه الفضائل:

الوفاء: ويرى أن هذه الفضيلـــة مكونـــة مـــن العـــدل والجـــود والنجـــدة، ويذكر لذلك عدداً من المبررات التـــى تجعـــل الوفـــاء نتـــاج هـــذه المكونات الثـــلاث.

الصبر: ويعتبره مكون من الحلم ونزاهة النفس، وهـــو تركيـــب مـــن كـــل من النجـــدة والجـــود والأمانـــة والعفـــة نوعـــان مـــن الفضـــائل الشخصية وتتركب من العـــدل والجـــود والقناعـــة وهـــى فضيلـــة مركبة من الجود والعدل. ثم يذكر فضيلـــة المـــداره ويـــرى أنـــها مركبة من الحلم والصبر والصـــدق والـــذى يعتـــبره مركـــب مـــن العدل والنجـــدة.

---

* ويرى الباحث أن هذه الفضائل يقصد بها القيم فى أيامنا هذه.

** الأخلاق والسير فى مداواة النفوس ص (٥٩).

والمدقق فى هذه المتغيرات التى تشكل محددات هامة من محددات الشخصية الإنسانية والتى قد أطلق عليها " الفضائل" يجد أنها تمثل مجموعة من القيم التى تعتبر جانباً هاماً من الجوانب الدافعية للشخصية، والتى على أساسها يصدر السلوك الإنسانى وتحدد مدى فاعليته مع أفراد المجتمع الذى يعيش فيه وينتمى إليه.

ويذكر لنا " ابن حزم" عدداً أخر من أبعاد الشخصية الذميمه* وهو " الحرص" ويرى أنه يتكون من الطمع، الحسد، الجور، الشح، والجهل. ويتولد من الحرص كثير من الأخلاق الذميمه كالذل، والسرقة، والغضب، والزنا، والقتل، والعشق، والهم بالفقر، والرغبة الشديد الملحة لأخذ ما بأيدى الناس.

هذا ويشير إلى صفة ذميمة أخرى كالكذب، وهو يعتبر أن الكفر نوع من أنواع الكذب. حيث إن كل كفر كذب، ولأن الكذب حنس والكفر نوع يندرج تحته، ويرى أنه يتكون من الجبن، و الجهل. ذلك لأن الجبن يولد مهانة النفس، وأن الكذب مهين للنفس.

---

* الأخلاق والسير فى مداواة النفوس ص (٥٩)

عوامل نفسية أخرى

كما يذكر لنا " ابن حزم" بعض العوامل الهامة والأساسية التى يجب العمل مع الإنسان وفقها، ومنها "الثناء"* والذى يعتبره ضرورة للنجاح فى عملية الوعظ. حيث إن الواعظ عندما يثنى على إنسان بحضور الشخص المسىء فإن هذا من شأنه أن يقوى السلوك السليم ويدعو المسىء إلى تعديل سلوكه. وهذا ما يتحدث عنه علماء النفس المحدثين وهو التعزيز.

ويشير كذلك إلى متغير أخر من المتغيرات التى نالت اهتمام علماء النفس وهو "الفروق الفردية"** عندما ذكر أنه "من عجيب قدرة الله تعالى كثرة الخلق، ثم لا ترى أحد يشبهه أخر شبهاً لا يكون بينهما فرق".

تلك إشارات سريعة مما استطاع الباحث أن يصل إليها بهدف إبراز بعض من الدراسات النفسية فى التراث الإسلامى فى أحد مؤلفات " ابن حزم" والتى تحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث والتنقيب فى كتبه، حيث إنه يمكن أن نصل إلى الكثير من الموضوعات ذات الارتباط الوثيق بعلم النفس وخاصة ما يتصل بالشخصية الإنسانية المسلمة.

---

* الأخلاق والسير فى مداواة النفوس ص (٦٢ ، ٦٣)

** الأخلاق والسير فى مداواة النفوس ص (٦٣)

المـــراجع

• محمود على صحابه . ابن حزم ومنهجـــه فـــى دراســـة الأديـــان - دار المعارف -القاهرة ١٩٨٣

• ابن حزم . الأخلاق والسير فى مداواة النفوس. تحقيق الطاهر أحمد مكـــى -دار المعارف-القاهرة١٩٨١

• ابن حزم . الأخلاق والسير فى مداواة النفـــوس. دار الكتـــب العلميـــة- بيروت-١٤٠٢هـ/١٩٨٢

من الدراسات النفسية
فى
التراث العربى الإسلامى

الدراسة الثالثة

الدراسات النفسية

عند

أبو اسماعيل عبد الله الأنصارى الهروى

(٣٨٤/ ٤٥٦هـ)

تقديـــم :

إنه ليس غريباً أن يتناول كثير من علمـــــاء المسلمين فى بحوثهم ودراســـاتهم عـــن الإســـلام موضوع علم النفس ، ذلك لأن القـــرآن الكريـــم ، والهدى النبوى الشريف قد خاطب الإنسان متمثـــلاً فى الجانب العقلى والجانب النفسى ، ولم لا .. وقد جاء الإسلام لتغيير اتجاهات الناس الدينية ، مــــن العبودية للأصنام إلى العبودية لله الواحد الأحـــد . وكيف ننكر ، أو ينكر بعض المشتغلين فى مجـــال علم النفس تناول علمـــــاء الإســـلام لكثـــير مـــن الموضوعات ذات الصلة بمجـــال علـــم النفـــس . وخاصة أن قضية الاسلام ، ومنهجه تــــتركز فـــى تحرير العقل من الأفكار الخاطئة ، وتحرير النفـــس من الشهوات الدنيئـــة ، ودعـــوة الإنســـان إلـــى إستخدام عقله فى كل شئ .

التعريف بالكاتب :

هو أبو اسماعيل عبدالله بن محمد الأنصارى الهروى نسبة إلى مدينة هرات ، التى تعتبر عاصمة ولاية هيرات ، أكبر ولاية فى غرب أفغانستان. ولد سنة ٣٩٦ هـ وتوفى سنة ٤٨١هـ ، وهو من كبار علماء المسلمين، ولقب بشيخ الأنصار وشيخ الاسلام وخطيب العجم، وكنيته أبو اسماعيل ويصل نسبه إلى أيوب الأنصارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عرف شاعراً وهو فى التاسعة من عمره ، وانتهى من دراسته للعلوم المتداولة وعمره أربعة عشر عاماً . وكان يتمتع بذاكرة قوية . فكان يحفظ حوالى ثلاثمائة ألف من الأحاديث النبوية الشريفة ، وكذلك ما يقرب من هذا العدد من أبيات الشعر العربى .

ويعتبر كتاب منازل السائرين الذى قام بتأليفه فى أواخر حياته من أشهر كتبه باللغة العربية . وقد اعتبره العلماء مرجعاً من مراجع التصوف والسلوك . وقد حظى بتدريس كتاب " مائة ميدان " من ميادين السلوك الإنسانى ذات الارتباط بالمحبة . ومن مؤلفاته أيضاً " علل المقامات " الذى يوجد فى مكتبة " فيينا بالنمسا " وقد قام بطبعه الأستاذ " بوركوى " وكتاب "كشف الأسرار " وهو تفسير للقرآن الكريم ، وقد طبع هذا التفسير فى طهران فى عشر مجلدات وطبع مختصراً فى مجلدين . وله كتاب آخر اسمه " مناجات خوجه عبدالله الأنصارى " وقد ألفها باللغة الفارسية المسجعة .

التعريف بالكتاب :

يضم كتاب منازل السائرين لأبى إسماعيل عبد الله الأنصارى الـهروى تسعة أقسام هى : البدايات ، والأبواب والمعاملات والأخلاق ، والأصـــول ، والأحوال ، والولايات ، والحقائق ، ثم النهايات . وضم كل قسم مـــن هـــذه الأقسام عدداً من الأبواب . فمثلاً نجـــد أن التفكـــير والتذكـــر فـــى فصـــل البدايات.وأن الحزن والخوف والخشوع والورع والرغبة فى قسم الأبـــواب . وأن الثقة فى قسم المعاملات . وأن الرضا والحياء والانبســـاط فـــى قســـم الأخلاق . وأن الإرادة فـــى قســـم الأصـــول . وأن الفراســـة ، والســـكينة والطمأنينة والهمة فى قسم الأودية . وأن المحبة ، والغيرة والشوق والقلق فى قسم الأحوال . وأن السرور والنفس والغربة فى قسم الولايـــات ، كمـــا يوجد قسم الحقائق لم يؤخذ منه شيئاً ، وأن المعرفة والحـــزن فـــى قســـم النهايات .

ويعتبر هذا الكتاب من الكتب الهامة فى التصوف ، ولذلك نجـــده قـــد شرح سبع شروح بالعربية والفارســـية ، وقـــد حققـــه الأب دى بوركـــس الدومنكى وقد جمع لهذا المخطوط ست وثلاثين مخطوطة من مختلف أنحـــاء العالم كتبت فيما بين القرن السابع والثالث عشر الهجرى .

ولا أدعى أن هذا المؤلف - منازل السائرين - الذى استخرجت منـــه بعض الدراسات النفسية كتاب فى علم النفس ، أو أن صاحبه قد ألفه تحـــت هذا المجال ، بل أنه كتاب فى التصوف الاسلامى ، وقد قصد صاحبه تأليفـــه فى مجال التصوف ، وخاصة أنـــه كـــان مـــن كبـــار علمـــاء المســـلمين

المتصوفين. إلا أن صاحب هذا الكتاب يكتب معبراً عن حالات نفسية يعيشها الإنسان العادى والإنسان المتصوف ، ومن هنا كان موضوع اختيارى لبعض الأبعاد والمتغيرات النفسية التى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمجال علم النفس ، وذلك بهدف بيان أن موضوع علم النفس من الموضوعات العلمية التى اهتم بها علماء الاسلام وإن لم تكن تحت عنوان علم النفس .

لقد تناول أبو إسماعيل عبد الله الأنصارى الهروى (٣٩٦ - ٤٨١ هـ) فى كتابه منازل السائرين عدداً من الموضوعات ذات الصلة الوثيقة بمجال علم النفس بمختلف فروعه ، حيث كتب باباً عن[١] التفكر ينطلق فيه معبراً عن هذا البعد الإنسانى الذى تميز به عن غيره من المخلوقات الأخرى من وجهة النظر الإسلامية . حيث تناوله بالتعريف والتصنيف ، مبيناً رأيه - كأحد علماء الإسلام - فى هذا البعد الذى تناوله علماء النفس المحدثين بالشرح والتوضيح والدراسات التجريبية ، وفيما يلى عرض موجز لما طرحه " الهروى " لبيان وجهة نظره فى التفكر فقال إنه: " تلمس البصيرة لاستدراك البغية " وبذلك يحدد مفهوم التفكر فى جملة مقتضبة تحتاج فى واقع الأمر لعديد من الشروح والبيان للكشف عن وجهة نظره فى هذا البعد النفسى الإنسانى .

هذا ؛ وقد قسم التفكير إلى ثلاثة أنواع هى ؛ الأول : فكر فى التوحيد ذاته . ويشير عندما يتحدث عن هذا النوع إلى أن عقل الإنسان يعجز عندما يفكر فيما يفوق قدراته العقلية ، والثانى : فكر فى كيفية الصنعة . ويرى

---

(١) لمزيد من التوضيح والبيان انظر شرح منازل السائرين عبد المعطى الاسكندرى ٢٩/٣٢ .

أن الإنسان يستطيع أن يصل عن طريق هذا النوع من الفكـــر إلـــى حســـن النظر ودقته الذى من شأنه أن يؤدى إلى الاستجابة لدعوة الله ، والثـــالث : فكر فى معانى الأعمال والأحوال . وبهذا النوع من الفكر يستطيع الإنســـان أن يتخلص من رق الشهوات والتحرر منها ، فتتضح أحواله وتبدو أعمالـــه خالية من الشبهات معبراً عن ذلك فى كل ما يصدر عنه من سلوك .

ومن هذا يبدو أن موضوع التفكير مســـألة مطروحـــة عنـــد علمـــاء الإسلام، وأنه موضوع هام وأساسى ذلك لأنه سمة الإنسان الرئيسية التـــى تعينه على فهم ما يحيط به من أعمال . ويدرك به أن كل فعل لابد لـــه مـــن فاعل وكل مصنوع لابد له من صانع ، وبذلـــك يصبـــح للتفكـــير وظيفـــة أساسية فى حياة الإنسان ؛ ومن أهم هذه الوظائف فى اطار الاسلام - ادراك الفرد - عن طريق التفكير - أن الله واحد أحد ، وأنه سبحانه وتعالى قـــادر وعالم ومهيمن على هذا الكون . ومن أجل هذا يعتبر التفكير فريضة علـــى المسلم لابد من ممارستها حتى يطلع العبد علـــى قـــدرة الخـــالق ، وعلـــى حكمته. فضلاً عن أن التفكير السليم يدعو الإنسان المســـلم إلـــى إصـــدار السلوك السوى والأعمال الطيبة التى تقوده إلى ما يهدف إليه من دنيـــاه . وبالتفكير - كذلك - يستطيع الإنسان المسلم أن يدرك كثيراً من الحقـــائق ، منها حقيقة الدنيا فيستوى عنده - فى هذا الحال - إقبالها وإدبارهـــا ؛ أى به يدرك الإنسان حقائق الأمور والأحوال والأفعال والأشياء .

هذا ؛ ويشير " أبو اسماعيل " إلى أن تفكير[1] الانســـان لـــه حـــدود

---

(١) منازل السائرين ص (١٣)

تحده. حيث لا يستطيع الوصول إلى معلومـــات ، أو إدراك مفــاهيم تفــوق قدراته العقلية ، وهو يضرب الأمثلة على ذلك ، مبرهناً على صحـــة قولـــه حتى لا يُدخل الإنسان عقله ونفسه فى أمور قد توقعه فى الزلــل والخطــأ . مؤكداً على أن حسن التفكير يمكن الإنسان من إدراك قدرة الخـــالق ، ومـــا أنعم به عليه من نعم ، فيصل بذلك إلى عظمة المنعم فى قلبه وعقله . الأمر الذى يجعل الإنسان يجيب الله بالطاعة ، ويتخلص بذلـــك مـــن رق نفســـه وشهواتها . فضلاً عن أن الإنسان يتمكـــن بـــالتفكير مـــن إدراك مراتـــب ودرجات الأعمال والاحوال مما يساعده علـــى حصـــول العـــبرة والعظـــة . بالإضافة إلى أن التفكير - أيضاً - يمكن الإنسان من القدرة على القيــاس ، أى قياس الشىء بأمثاله فى الحكم .

ومن هذا كله تتضح وجهة نظر أحد علماء الدين الإسلامى فـــى أحـــد متغيرات علم النفس وأهمها وهو التفكير ويستبين مـــدى الاهتمـــام بـــه ، وضرورة التركيز عليه ، والعمل على تنميته للحصول على ثمرته المنشـودة منه فى إطار النظرة الإسلامية إليه ، وهى إدراك العبد لوحدانية الله الخـــالق المبدع ، وحسن سلوكه فى حياته الدنيا .

هذا ؛ ويحدد باباً آخراً للتذكر[١] ، ويرى أنـــه بعـــد التفكـــير ، وأن التذكر هو التخلص من الغفلة والنسيان اللذان يعيناه على ذلك . لأن التفكـر طلب والتذكر وجود أى أن التفكر - بلغة عصرنا - طلب لتحقيق هـــدف أو مراد . والتذكر استدعاء معلومات موجودة بالفعل . كما يتعرض للعائد مـــن

---

(١) منازل السائرين ص (١٥)

عملية التذكر وفائدته بالنسبة للإنسان فيذكر أنه يؤدى إلى الانتفاع بالعظة بعد استبصار العبرة . كما يتناول العلاقة بين التفكير والتذكر لبيان نوع الارتباط بينهما ؛ فيرى أن التفكير يؤدى إلى التأمل فى القرآن ، والتمنى ، فينتفع الانسان بذلك فى الحصول على العبرة ، ونيل العظة ، ويرى أن هذا يعتبر ثمرة من ثمار التفكر .

كما تناول بعد ذلك مفهوم الطمأنينة[١] وهو أحد المتغيرات النفسية التى تناولها الباحثون فى مجال علم النفس بالبحث والدراسة . وهو فى تناوله لهذا المتغير يحدد مفهومه أولاً ، فيرى أن الطمأنينة هى " سكون يقويه أمن صحيح شبيه بالعيان " ، وهو سكون أمن فيه استراحة وأنس . وتتحقق هذه الطمأنينة بالقلب الذى يذكر الله ، فتسرى فى نفسه طمأنينة الخائف إلى الرجاء ، والضجر إلى الحكم ، والمبتلى إلى المثوبة . كما تحقق بإحساس الروح بالكشف عما تقصده ، وبالشوق الذى تنشده ، وبالجمع الذى تتمناه . وهو يقدم الطمأنينة حسب مفهومه وخلفيته الإسلامية ، والتى ينطلق منها ليحدد مثل هذا المتغير الذى يشكل أهمية بالغة فى حياة الإنسان ، وفى تطلعه إلى الفوز بالحياة الأبدية ، التى من أجلها يسعى فى حياته الدنيا ، فهى طمانينة مستمدة من الإيمان بالله الواحد ، ولذلك يسعى الإنسان المؤمن حق الإيمان إلى تحقيقها بالسبل والوسائل التى يحددها الخالق الأعظم سبحانه وتعالى .

وهو يفرق بين الطمأنينة والسكينة ؛ فيرى أن السكينة صولة تطرق

---

(١) منازل السائرين ص ١٨

القلب ويغلب حكمها عليه ، وتورث خمود الهيبة أحياناً فيهدأ الإنسان ويخمد من هيبة لما يخشاه . فيزول عنه القلق والهلع ، ولذلك تعتبر السكينة نعتاً ؛ أى تكون حيناً بعد حين ، وأنه لا يستمر مكثها فى القلق ، ولا تتوالى أمثالها. أما الطمأنينة فهى نعت لا تزايل صاحبها ، والطمأنينة سكون رجاء . وأمن وسرور ، والطمأنينة يستمر مكثها وتتوالى أمثالها فى نفس الإنسان . كما يرى أنها - أيضاً - على ثلاث درجات :

أ- طمأنينة القلب بذكر الله ، وهى طمأنينة الخائف إلى الرجاء ، والضجر إلى الحكم ، والمبتلى إلى المثوبة . ومثل هؤلاء يطمئن الواحد منهم بجميل عطاء الله ، وربما عند البلاء من جملة النعم .

ب- طمأنينة الروح فى القصد . وهى ناتجة عن بيان صحة القصد لله فى عمل الإنسان بالأوامر والنواهى ، ولذلك يغلب على قلبه رؤية التصريف فيه للحق أمراً ونهياً وفعلاً واقتداراً . وبذلك يصبح مطمئناً لنيل معالم الجمع .

جـ-طمأنينة شهود الحضرة إلى اللطف ، هى ناتجة عن مداومة المشاهدة مع صحة الكشف ، وطمأنينة إلى البقاء فى حالة الجمع .

النفس : ويقول "أبو اسماعيل" [١] وتسمى النفس نفساً لروح المتنفس به . والنفس لديه ثلاث درجات :

أ- نفس فى استتار ، معلق بالعلم وهى تتولد عنده من وحشة الاستتار ؛

---

(١) منازل السائرين ص ص (٨٦ ، ٨٧) وشرح منازل السائرين ص ص (١٨١ / ١٨٢) .

وهى الظلمة التى قالوا إنها مقـام . وهـذه النفـس متعلقـة بـالعلم الصحيح، وهى نفس كشفت بعد استتار ، فيعرف صاحبها نعمة خالقـه عليه ، وصاحب هذه النفس أنفاسه أنفاس حزن وأسف وهلاك وتلـف لما حجب عنه من لذيذ المقام وجميل المرام . وهـو باعتبـار الحـال والستر ظلمة ، وباعتبار المآل . وما يترتب عليه فى الاستقبال مقـام محمود .

ب- وهى نفسٌ فى حين التجلى ، وهى نفس شاخص عن مقام السرور إلـى روح أم المعاينة ، مملوء من نور الوجود شاخص إلى مُنْقطع الإشارة. وهى أبلغ مما قبلها . حيث إن الأولى فى حالة استتار وظلمـة إلا أن الثانية فى حالة تجل ونور . وهى نفس دائمة التعلق بالله رغبـة فـى الانتقال من حالة التحلى التى تكون من وراء ستر رقيـق إلـى حالـة الكشف والمعاينة من غير ستر ، ولذلك فإن صاحبها يكـون شـاخصاً يقلق إلى المعاينة .

جـ-نفسٌ مطهر بماء القدس ، قائم بإشارات الأزل ، وهو النفـس الـذى يسمى صدف النور . وهى أفضل وأتم مما قبلها . حيـث إن النفـس الأولى سراج ، والثانية للقاصد معراج ، والثالث للمحقق تاج . وهـو نَفَسٌ مستغرق بنور الحق تنطق عليه ولذلك فهو متعلق به وملازم له.

إن العرض السـابق لمفهـوم النفس ودرجاتهـا من وجهـة نظـر (أبى إسماعيل) تشير إلى تصنيفها من حيث المنزلة والمقام ، ومكانتـها عنـد الخالق . كما أنها تشير إلى رغبات النفس المسلمة فى نيـل رضـا خالقها والفوز بمكانة ما عند ربها . حيث يبين أن منـها المتعلـق بـالعلم

الصحيح فكشفت بعد استتار نعم الله عليها ، ومنها ما هو متعلق بالرغبة في المعاينة أى معاينة نور الله ، منتظرة للإنتقال من حالة التجلى التى تكون من وراء ستر رقيق إلى حالة الكشف والمعاينة من غير ستر ، ومنها ما هو مستغرق بنور الحق وآثاره ولذلك فهو متعلق بها وملازم لها. وهذا يعد فى مجال الدراسات النفسية الإسلامية تصنيف جديد للنفس على خلاف ما ورد من قبل فى كتب التراث الاسلامى من تصنيفها على أساس ما يصدر عنها من سلوك، وهى النفس الأمارة ، والنفس اللوامة ، والنفس المطمئنة. وفى هذا أشارة جديدة إلى تنبيه المسلمين إلى ما ينبغى أن تهدف إليه النفس فى حياتها الدنيا ، وهو تحقيق منزلة لها عند خالقها، وأن ذلك لا يمكن أن يتم بدون الأعمال والأفعال والأحوال الصالحة فى حياة الإنسان ، تلك التى تفيد صاحبها بالوصول إلى ما تتطلع إليه من المكانة والمنزلة عند الله ، وفى الوقت نفسه تفيده فى أن يحيا حياة دنيوية صحيحة نقية طاهرة . كما أنها تفيد المجتمع الإنسانى بفعلها وحركتها الداعية المستمرة لفعل الخير إستجابة لإوامر الله وانتهاء بنواهيه فينعم المجتمع بكل ما يقدم الفرد من أعمال وأفعال وأقوال وأحوال .

الإرادة : ويشير " أبو اسماعيل " إلى أن الإرادة هى "[١] الإجابة لدواعى الحقيقة طوعاً " ويقصد بالإرادة بناء على ذلك " ما يطرق قلب الإنسان من الخواطر الداعية إلى العزوم والأفعال " . على أساس من

(١) منازل السائرين ص (٥٢) وشرح منازل السائرين ص ص (١٠٩ / ١١٢)

استكمال الإنسان لمعارفه عن مولاه . ومن هنا يبادر إلى داعى الحق من غير كسل أو اعتلال . ولذلك تعتبر أساس سائر الأعمال . وتأتى الإرادة على ثلاث درجات :

أ- .ذهاب عن العادات بصحة العلم، وتعلق بأنفاس السالكين مع صدق القصد .وهذا المستوى من الإرادة يدعو صاحبه إلى ملازمة نفسه بالعلم وإلى قطع عوائده الدنيوية ، بشرط أن يرفق بنفسه ؛ فلا ينقلها دفعة ؛ فتنفرد وتشرد ، أو يتركها على ما كانت عليه فتبرد وتخمد ، أو يراوضها فى نقلها عن عوائدها بغير الوجوه الجائزة شرعاً فيفوتها خير الدارين وتفسد . ويمكن أن يتم ذلك إذا صدق الإنسان فى مقصده.

ب- تقطعٌ بصحبة الحال ، وترويح الأنس والسير بين القبض والبسط. وهى أرفع مما سبقها حيث تدعو الإرادة الأولى إلى إجابة الداعى للخروج عن العوائد والمشغلات. إلا أن هذا المستوى الثانى يعبر عن إرادة أعلى إجابة لداعى الأحوال ، وتحمل ما يبدو منها فى القلوب والأبدان من الآلام بترقب الزيادات، وترويح القلوب بمواهب علام الغيوب .

جـ-ذهول مع صحبة الاستقامة ، وملازمته الرعاية على تهذيب الأدب . وهى درجة من الإرادة أتم مما قبلها . حيث تشير الإرادة (ب) إلى ضرورة الوقوف مع الحال ، وتحمل لما يبدو من الآلام ليحصل بذلك على الإحساس بالأنس . أما هذه الإرادة الأخيرة (جـ) وهى إرادة الانشغال بالحق سبحانه وتعالى ، وذلك بالسلوك المستقيم الذى يتأتى بالتهذيب والأدب واستمرارية رعاية النفس .

ومما تقدم يبدو واضحاً مفهوم الإرادة ودرجاتها عند " أبى اسماعيل " حيث يرى أنها قدرة الإنسان على الإجابة للدواعى دون ضغط من الآخرين كما يرى أنها تأتى على ثلاث درجات ؛ الأولى أساس إرادة الإنسان من التخلص من العادات الدنيوية على أساس من العلم والمعرفة وبالأساليب الصحيحة السليمة التى تؤدى إلى ارتفاع مستوى الإرادة لدى الإنسان لتصل إلى المستوى الثانى الذى يدعو صاحبه إلى تحمل الآلام فى سبيل الوصول إلى نسيم الأنس بالله . وأن الثالثة هى أعلى مستوى من الإرادة ، وبها يصل الإنسان إلى الانشغال بالله على أساس من السلوك المستقيم . ولكن هذه الدرجات الإرادية مستمدة من مدى قدرة الإنسان على استكمال كافة المعارف عن خالقه ومولاه . بحيث إنه إذا ما استطاع إدراك ذلك ، قويت إرادته للإستجابة لأوامر الله دون تراخ أو كسل . ولذلك اعتبرها أبو اسماعيل أساس لكل ما يصدر عن الإنسان من سلوك كانت أقوالاً أو أعمالاً.

كما يبدو - أيضاً - أنها ذات ارتباط وثيق بعلاقة الإنسان مع خالقه . حيث صنف درجاتها على أساس رغبة الإنسان فى معرفة المزيد من العلم بالله ، وانه كلما كان الإنسان المسلم عارفاً بمولاه قويت إرادته ودفعته للإقبال على الله ، وممارسة الأعمال التى تقربه إليه .

الغيرة [(١)]: ويقصد بها "سقوط الاحتمال ظناً ، والضيق عن الصبر

---

(١) منازل السائرين ص ص (٧٢ : ٧٣) وشرح منازل السائرين ص ص (١٥٤ / ١٥٦).

نفاسه " ويبنى هذا المفهوم أن الغيرة فى الإسلام تكون فى الخـــير المغـــار عليه، كغيرة سليمان عليه السلام على وقته الذى شغل فيه عن ذكر ربـــه . كما أنها غيرة على حرم الفواحش ، فالمؤمن يغار ، والحـــق يغـــار ومـــن غيرته حرم الفواحش . أى أن الغيرة هى إبعاد الإنسان ما يكره والإعـــواض عنه . وأن ضيق صدر الإنسان عن الصبر ليس جزعاً ، إنما يعنـــى ضيـــق عن الصبر من أجل المنافسة فى الخير المغار عليه . ويرى أنها على ثـــلاث درجات :

أ- غيرة العابد على ضائع يسترد ضياعه ، ويستدرك فواتـــه ، ويتـــدارك هلاكه ، أى أن العابد تكون غيرته على وقت ضـــائع فيمـــا لا يفيـــد ، وذلك بدعوه إلى استرداده ما ضاع منه من الوقـــت بـــدوام الأعمـــال بالذكر والابتهال ، وأن يتدارك هلاكه بملازمته الرعاية له خوفـــاً مـــن الاختلال.

ب- غيرة المريد على وقت فات ، وهى غيرة قاتلة فإن فات الوقـــت إشـــتد الغضب على فواته وهى أشد مما قبلها ، حيث إنه يخشى فوات الوقـــت دون تحقيق مقصده فيه ، لأن كل وقت يمضى عليه وهو فى غفلة عـــن مقصده فيه هلاكه ، ولذلك عبر عنها بأنها " غيرة قاتلـــة " ذلـــك لأن الوقت سريع المضى ، وإذا طلب رجوعه لن يحدث ذلك ، وإن حـــدث لن يقدر على تعويضه ما فات منه .

جـ-غيرة العارف على عين غطاها غينُ ، وسرَ غشية رينُ ، ونَفَس علـــق برجاء ، أو التفت إلى عطاء . وهى درجة أعلى وأبلغ ممـــا قبلـــها ، حيث إن غيرة السالك العابد على ضياع أحواله وأوقاتـــه فـــى غـــير

السلوك الحميد . وغيرة العارف على وجود حاصل يخشى عليه الرجوع أو الفوات . ذلك لأن الأخيرة متعلقة بالمولى عز وجل التى يكون فيها العابد عيناً انفتحت لنظر الحق غطاهما غفلة ، وسر بينه وبين مولاه ستره عنه هواه .

ومن يدقق النظر فيما عرضه " أبو اسماعيل " عن مفهوم الغيرة ، ودرجاتها . يبدو واضحاً أنها ليست كمفهومها عند أصحاب التحليل النفسى. حيث يركز " أبو اسماعيل " على أن الإنسان ينبغى أن يغار من أجل الخير ، والمحبة ، والنفع ، وأن تكون هذه الغيرة لله وفى الله . وهذا هو المنطلق الإسلامى لمفهوم الغيرة . حيث لا يغار إلا من أجل منافع العباد وتثبيت الإيمان فى نفوسهم بإبعادهم عن فعل الفواحش ما ظهر منها وبطن، وكذلك الغيرة على الوقت الضائع الذى لا يستفاد منه فى الأعمال والأحوال ، وكل ما من شانه أن يقرب العبد إلى خالقه . وبناء على ذلك تصبح الغيرة مصدر خير للإنسان الفرد وللمجتمع على حد سواء وهذا على خلاف مفهوم الغيرة[١] عند التحليل النفسى - كما سبق القول - ذلك لأنها عندهم تعنى كرهاً ، وحقداً ، وحسداً ، وبذلك تصبح مهلكه لحياة كل من الفرد والمجتمع ، بل يبلغ أثرها فى الحياة الدنيا إلى حد تدمير كل شئ، وفى الآخرة الخسران المبين . أى أن الإنسان لا يجنى منها سوى الخراب فى الدنيا والخسران فى الآخرة .

---

(١) الصحة النفسية للطفل ص ص (١٢٣ / ١٣٤)

القلق : ويقصد به[١] " تحريــك الشــوق بإســقاط الصبــر " وهــو نتاج الشوق مع قلة الصبر ، وخاصة إذا اشــتد الشــوق . وهــذا يعنــى ان القلق سمة أساسية من ســمات الإنســان ، وهــو يصــاب بــها مــن حينٍ إلى آخر تبعاً لأحواله؛ فإن كــان فــى انتظــار محبــوب ولــم يصــل فإنه فى هذه الحالة يصاب بدرجــة مــن درجــات القلــق وتــزداد حدتــه بزيادة درجة المحبة مع قلة الصــبر عنــده .

ويرى انه على ثلاث درجات :

أ- قلق يضيق الخُلق ، ويبغض الخلق ، ويلذذ المــوت . وهــذه الدرجــة يفوت معها الصبر لسيطرته على القلب ، وعندما يكون الإنسان علــى درجة من الشوق ، أصيب بضيق الخلق نتيجة لعدم قدرته على الوصل إلى محبوبة . وهو بناء على هذه الحالة يبغض ويكره كل من يشــغله عن مراده وطلبه وقد يصل به الحد إلى تمنى الموت لنيل مراده .

ب- قلق يغالب العقل ، ويخلى السمع ويصاول الطاقة . ويوجد تفاوتاً بيــن هذه الدرجة من القلق وبين سابقتها . حيث إن القلق الأول نتيجة لعــدم تواجد الصبر مع زيادة درجة الشوق ، أما هذه فهــى نتــاج انشــغال عقله عن ذكر غيره فلم يعد يسمع .

جـ-قلق لا يرحم أبداً ، ولا يقبل أبداً ،ولا يبقى أحداً . وهـــو قلــق نتــاج وصول الإنسان إلى درجة خاصة من التقريب ، التى بها يكشف مــا لا

---

(٢) منازل السائرين ص ص (٧٤ / ٧٥) وشرح منازل الســائرين ص ص (١٥٨ / ١٥٩)

نهاية له من أنواع المعارف والتأديب . ولا يقبل أمداً لانتفاء النهايـــة عن الإمكان فيما يطلعه عليه " القريب المجيب " وبذلك فان قلقه هـذا لا يجعله يذكر أحداً .

إن الواعى لما تقدم من بيـــان لمفـــهوم القلـــق مـــن وجهـــة نظـــر الإسلام، والتى طرحها " أبو اســـماعيل " يـدرك تمـــام الإدراك أن القلـــق سمة من سمات الإنسان إلا أنه ينبغى أن يكـــون القلـــق ليـــس مـــن أجـــل تحقيق أهداف دنيوية فقط وآمـــال بشـــرية ، أو أغـــراض فانيـــة . إنمـــا ينبغى أن يكون قلق الإنسان من أجل هدف أســـمى وأكـــبر ممـــا تقـــدم ، وهو القلق من أجل حقيقـــة علاقـــة الإنســـان بخالقـــه والمنعـــم عليـــه . حيث إن كل ما يتمناه الإنســـان المســـلم هـــو رضـــى الله عنـــه ، وتقبـــل أعماله وأفعالـــه التـــى ينبغـــى أن تكـــون جميعـــاً ابتغـــاء مرضـــاة الله . وليست ابتغاء تحقيق أغراض أو حاجـــات دنيويـــة زائلـــة . وأن يكـــون القلق من أجل استشعار مزيد مـــن حـــب الله للإنســـان ، ومـــن رضـــا الله على الإنسان ، ومن هنا يصبـــح العمـــل الـــذى يقدمـــه الإنســـان خالصـــاً لله، وكل ما كان لله كان ثمره أنضـــج وأنفـــع وأثـــره وأبقـــى . فتصبـــح حياة الإنسان حياة مليئة بالأعمـــال الخـــيرة التـــى ينشـــد بـــها وجـــه الله سواء كانت هذه الأعمـــال ؛ تعبديـــة بحتـــة أو دنيويـــة فـــى ظاهرهـــا إلا أنها تعبدية فى دافعها . ومن هنا يكون لـــها الأثـــر العظيـــم البـــاقى فـــى حياة الإنسان الفرد ، وحيـــاة الجماعـــة ، والثـــواب الأكـــبر فـــى الحيـــاة الآخـــرة .

الثقة : كما تناول " أبو اسماعيل " بالحديث عامل الثقة التى اعتبرها"[١] سويداء عين التوكل ، ونقطة دائرة التفويض ، وسويداء قلب التسليم ، وهى بذلك أساس من الأسس التى يعتمد عليها المتوكل . حيث لا يتوكل الإنسان العبد على الله سبحانه وتعالى يفوض أمره إليه إلا إذا وثق بالله سبحانه وتعالى أقتداراً وعلماً وإحساناً . ولذلك وصفها " أبو اسماعيل " بأنها سويداء عين التوكل ومركز التفويض ، وسويداء قلب التسليم أى لبه. ويرى أنها على ثلاث درجات :

أ- درجة الإياس ، وهو إياس العبد من مقاومة الأحكام ليقعد عن منازعة الأقسام ، وليتخلص من قحة الإقدام . حيث إنه أول ما تكون عنده الثقة قطع اليأس من النفس ، فتسكن بذلك حينئذ للقادر على نفعها وضرها . وبذلك تقعد النفس عن منازعتها عند اختلاف الأرزاق . وعندئذ يتخلص الإنسان من قحة الإقدام ؛ أى على الإعتراض على المقدور من غير أدب ولا احترام .

ب-درجة الأمن : وهو أمن العبد من فوات المقدور ، وانتقاص المسطور؛ فيظفر بروح الرضا . وهى أتم مما قبلها . حيث إن ما قبلها كان على يأس النفس من الاقتدار والوثوق فى قدرة الله العزيز الجبار . أما الثانية فهى ثقة بأن ارادة الله تكون ، ولابد من حدوثها ، وبذلك تأمن النفس ، ولا تبالى بفوات ما تحقق لانه لابد من أن يتحقق أو يحدث . حيث يكون الصبر على ثقة من أنه لا يتبدل ما ثبت فى اللوح المحفوظ

---

(١) منازل السائرين ص ص (٣٥ / ٣٦) وشرح منازل السائرين ص ص (٧٣ / ٧٥) .

من مسطور . وعندئذ يشعر بالرضا وينعم بالحلو والمر من القضاء ذلك ليقينه بأنه اختيار مولاه .

جـ-معاينة أولية الحقّ ليتخلص من محن القصود ، وتكاليف الحمايات ، والتصريح على مدارج الوسائل . وهى أفضل وأعلى مما قبلها . حيث تشير إلى أن ثقة (ب) سكون لمن أمن من فوات القسم المسطور المقدر . أما هذه فإنها سكون بناء على الثقة فيها إلى ما سبق من اللطف بالعبد . حيث اليقين بأن المقدر مكتوب لا مفر منه ولا هروب ، وذلك يتحقق بفضل الإيمان أولاً . وبذلك يدفع العبد هذه المقدرات بأيسر الأمور فتستريح نفسه .

الرضا :وهو[1] اسم للوقوف الصادق حيثما وقف العبد ، لا يلتمس متقدماً ولا متأخراً ، ولا يستزيد مزيداً ، ولا يستبدل حالاً . إنه من المعلوم أن الإنسان مأمور بطلب المزيد من فضل الله ، والتنقل فى درجات التقرب إليه ، ولذلك فهو يهرب من مناطق النقص ، ويسأل الله فى استبدال الأحوال هذا فيما يطلب الإنسان فى دنياه أو ما يحل به من نوازل . كما أن الرضا يتحقق بعد نزول القضاء ، أما ما قبله فهو عبارة عن عزم على الرضا . حيث يكون العبد فى كلا الحالتين راضٍ لحسن اختيار الله سبحانه وتعالى . ويرى " أبو اسماعيل " أنه على ثلاث درجات :

أ-رضا العامة : وهو الرضا بالله رباً ؛ بسخط عبادة ما دونه ، وهذا قطب

---

(١) منازل السائرين ص ص (٣٩ / ٤١) وشرح منازل السائرين ص ص (٨١ / ٨٤)

رحى الإسلام ، وهو يطهر من الشرك الأكبر . وفى هذه الحالة يكون الله سبحانه وتعالى الأحب لدى العبد ، وأولى بالتعظيم ، وأحق بالطاعة. حيث لا منعم سواه ، ولا ثان له فى سلطانه ولا صفاته ولا ملكوته ، وكذلك يكون أحق بالطاعة إذ لا رب عنده سواه .

ب-الرضا عن الله ، وهو الرضا عنه فى كل ما قضى ، وذلك يمكن ان يحدث ويتم باستواء الحالات عند العبد ، وسقوط الخصومة مع الخلق ، وبالخلاص من المسألة والإلحاح . وهى أرفع مما قبلها لأن الأولى واجبة والثانية مندوبة ما لم يضعف حاله ، فيفوته الصبر ، فيقع فى التسخط وبذلك يخرج من الرضا . ولذلك لابد أن تستوى عنده الحالات، لأنها من عند ربه ؛ لا من حيث طبعه وميل نفسه .

جـ-الرضا برضى الله ، فلا يرى العبد لنفسه سخطاً ولا رضا فيبعثه على ترك التحكم وحسم الاختيار ، وإسقاط التمييز ، ولو أدخل النار . وهى أرقى مما قبلها ، ذلك لأن رضا العبد متعلق بما وقع من الأفعال ولهذا يتعلق رضاه بصفه من صفاته تعالى ، من حيث إنه تعالت قدرته ، هو المختار المريد أجراه عليه ، موافقاً له كان أو مخالفاً لهواه . معرضاً عن سخط نفسه ورضاها . مقبلاً على محبة ما اجراه عليها خالقها . ومن هذا يفهم أن مفهوم الرضا من وجهة نظر الإسلام كما يطرحها " أبو اسماعيل " أعمق بكثير من مفهوم الرضا الذى تواضع عليه المتخصصون فى علم النفس ، ذلك لأنه رضا منبثق عن الدين الإسلامى ، ومرتبط ارتباطاً وثيقاً بواقع علاقة العبد بخالقه وقد يظن بعض الناس إنه لا علاقة بين مفهوم الرضا فى الإسلام وبين المفهوم

المتعارف عليه فى علم النفس . حيث إن الأمل مرتبط بمجـال علاقـة الإنسان بالخالق والثانى مرتبط بعلاقة الإنسان بواقعه وحياته . ولـذا يعتبر مفهوم الرضا الإسلامى أعمق بكثير من تلك النظرة السـطحية : ذلك لان الإنسان إذا تحقق له الرضا من المنطلق الإسلامى[١] - الرضـا مع خالقه - الرضا بالله ، والرضا عن الله ، والرضا برضى الله فـإن ذلك بلا شك ينعكس على نفسية العبد التى ينالها الهدوء والاسـتقرار النفسى الذى يبدو واضحاً فى كل ما يصدر عنه من تصرفات وأفعـال وأقوال ، وفى كل حالاته ؛ خيرها وشرها ذلك لرضاه بمـا قضـى الله وما قدم . وهذا بدوره يترك أثراً كبيراً فى معاملاته مـع غـيره مـن الناس ؛ فتصبح العلاقات طيبة وجيدة . مما يحدث جواً نفسياً مريحـاً فى البيئة الإنسانية .

الاغتراب : ويعرفه "أبو اسماعيل " بأنه اسم يشار به[٢] إلى الانفراد عن الأكفاء " ويعنى هذا أن الاغتراب حالة من حالات الانفراد عن الأكفـاء والأمثال ، وتارة يكون هذا الانفراد بالجسم ، وتارة أخرى يكون بـالانفراد عنهم بصفاته وأحواله . حيث يكون الهدف منها التفرغ للمقصود، لسـلامته من معارضة أضداده . ويرى إنها على ثلاث درجات .

أ- الغربة عن الأوطان ، وهذا الغريب موته شهادة ويقاس له فى قبره من متوفاه إلى وطنه . ويجمع يوم القيامة إلى عيسى بـن مريـم عليـه

---

(١) من أسس الصحة النفسية فى الإسلام . ص ص (١٢٣ / ١٣١)

(٢) منازل السائرين ص ص (٨٧ / ٨٨) وشرح منازل السائرين ص ص (٨٣ / ١٨٤)

السلام . وهذه أولى درجات الغربة وينال صاحبها الشهادة ، وتكون له مكانة محمودة عند الله سبحانه وتعالى .

ب- غربة الحال وهذا من الغرباء الذين يتصفون بالصلاح فى زمان فاسد . بين قوم فاسدين ، أو عالم بين قوم جاهلين او صديق بين قوم منافقين . وهذه الغربة لا تكون اختيارياً بل تحدثها الضرورة والحاجة إلى ذلك . ويكون فيها الإنسان مخالطاً لغيره من الناس شكلاً وظاهراً، وخاصة إذا كان الشرع يتطلب منه أن يخالط من هذه صفته ، لتعليم علم أو حكم بينهم وفصل ، أو حاجة ضرورية لمأكل ومشرب ، وما لابد له منه من مخالطتهم . وماعدا ذلك لا يكون الصادق بينهم فى الغربة إلا قهراً وجبراً .

جـ- غربة الهمة ، وهى غربة طلب الحق ، وغربة العارف لان العارف فى شاهده غريب ، وموجود فيما يحمله علم أو يظهره وجد ، أو يقوم به رسم أو تطيقه إشارة أو يشمله أسم غريب. وهذه تعتبر غربة الغربة، وهى غربة أتم مما قبلها . حيث إن الأولى إما غربة بالأفعال أو بالأحوال . وهذه غربة بالهمم ، وأن صاحبها غريب فى الدنيا ، وغريب فى أبناء الآخرة الموقوفين مع رؤية الأعمال أو الأحوال ، فهو فى الدنيا غريب بين أبنائها بأفعاله أو أحواله ، وهو فى الآخرة غريب بين أبنائها لانفراده بحالة وشاهده . وهى منزلة ومكانة مرموقة بين المنازل الثلاث .

ويتناول " أبو اسماعيل " الاغتراب من وجهة نظره على أساس من

الفهم الإسلامى ، وكما يجب أن يكون الاغتراب ، والنتائج المترتبة على هذا النوع من الاغتراب . حيث يشير إلى مفهوم الاغتراب ، وإلى درجاته ، التى اعتبرها أنواعه . حيث يذكر أنه الإنفراد بالجسم أو بالنفس عن الآخرين . وأنه الاغتراب عن الوطن ، أو الاغتراب عن حال الناس وافعالهم ، ثم غربة الغربة حيث يتميز صاحبها بأنه يكون غريباً بين أبناء الدنيا بأفعاله وأحواله وغريب بين ابناء الآخرة بتفرده بأعماله وأفعاله وأحواله عن غيره من عباد الله . ويؤكد " أبو اسماعيل " على ما يترتب على هذه الدرجات من الغربة وعلى نتائجها التى تدعو الإنسان إلى ضرورة المحافظة عليها لما لها من آثار طيبة فى حياة الإنسان ، فلا يناله فساد الفاسدين ، ولا يتأثر بجرم المجرين . وفى الحياة الآخرة ينعم بالمكانة المرموقة عند الله سبحانه وتعالى ، وهذا المفهوم وإن كان يتفق فى معناه مع المفهوم السائد والمنتشر عن الاغتراب ؛ وهو الانفراد والعزلة . إلا أن تصنيفه يختلف تمام الاختلاف عن أنواع التصنيفات التى وضعها المتخصصون فى علم النفس والفلسفة حيث يصنفها " أبوإسماعيل " على أساس علاقة الإنسان بخالقه ، ومدى إلتزامه بأوامر دينه ونواهيه . بينما تصنيف علماء النفس لنوعية الاغتراب مبنى على أساس أثر العوامل النفسية والاجتماعية والبيئية على الإنسان .

الفراسة : ويقصد به[1] " استئناس حكم غيب من غير استدلال بشاهد ، ولا اختيار بتجربة " وهذا يعنى أن الإنسان المؤمن الحق يهبه الله

---

[1] منازل السائرين ص ص (٦٤ / ٦٥) وشرح منازل السائرين ص ص (١٣٤ / ١٣٦)

سبحانه وتعالى نوراً فى قلبه ، يكشف به ما لم يُكشف لغيره ، بغير قياس على شىء ، ولا تجربة بأمثاله . وذلك بخاطر صحيح يمنحه إياه لا يكذب أو يخطئ ، أو بنور كاشف لا يخطئ .

هذا ؛ وقد بين أنها تكون على ثلاث درجات :

أ- طارئة نادرة ؛ وهى تحدث على لسان وحشى فى العمر مرة ، لحاجة مريد صادق إليها ، لا يوقف على مخرجها ، ولا يؤدى بصاحبها ، وهى تدل على حق وصدق وإن كانت نادرة .

ب- وفراسة تجنى من غرس الايمان ، وتطلع من صحة الحال ، وهى تلك الفراسة التى أصلها الثابت الإيمان ، ولذلك تظهر آثارها عند صحة الحال .

جـ-فراسة سرية لم تجتلبها روية على لسان مصطنع تصريحاً أو رمزاً . وهى فراسة غير مكتسبة ذلك لان أدنى درجات الكسب؛ الرؤية والنظر فى الشىء قبل النطق به لمعرفة صحته ، وذلك بميزان العلم الصحيح. أو بما تشير إليه الأحوال المفهومة بالإشارات والتلويح. إلا أن هذه الفراسة موهبه يمنحها الله سبحانه وتعالى قلوب المصطنعين من خواصه وعلى ألسنتهم قهراً وجبراً ، رحمة للخلق وعوناً لهم ، وتقوية فى أحوالهم ، وتمكيناً فى مقاماتهم .

ومما تقدم يتضح تحديد " أبى اسماعيل " لمفهوم الفراسة أو التوسم كما أطلق عليها ؛ وهو قدرة الإنسان على إصدار الأحكام دون توافر الحيثيات أو الأسباب التى تمكنه من الحكم ، وأن هذه الأحكام - غالباً ما

تكون - صادقة ومؤيدة للواقع الذى يحدث بعد ذلك . إلا أنــه يرجـع هـذه القدرة إلى ما يمنحه الله سبحانه وتعالى للإنسان المؤمن من نور فى قلبـه يمكنه من كشف ما لم يكشف لغيره دون الاعتماد على القياس أو التجربـة إنما على أساس خاطر صحيح يمنحه الله إياه . ويرى أن هذا لا يتــأتى إلا للعباد الذين على درجة عالية من الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، ويذكر أنـها قد تأتى على لسان الإنسان فى العمر مرة . وقد تأتى مـن الإنسـان عنـد توافر صحة حاله التى تنبىء عن ثبات وعلو درجة إيمانه . وأخرى تــأتى هبة من الله فى قلوب الخواص من عبادة تمكيناً لـهم وتثبيتـاً لأحوالـهم الإيمانية ذات المكانة الرفيعة والدرجة العالية . هذا علـى خـلاف تفسـير المتخصصين فى علم النفس لمن لديهم هذه القدرة . حيث يرون أنها تـأتى على أساس ما لدى الإنسان من قدرات عقلية عالية ، وإمكانيات ابتكاريـة غير متوفرة لدى كثير من البشر .

<u>الانبســاط</u> : ويقصـد بـه " <u>أبـو اسـماعيل</u>"[١] إرسـال السـجية والتحاشى من وحشة الحشمة ، وهو السير مـع الجبلـة ، وهـذا يعنـى تـرك الاحـترام ، وطـرح الاحتشـام ، كمـا يسـتعمله العـوام . أى أن الإنسان المنبسط هو ذلك الشخص الـذى يتكلـم أو يتحـدث أو يسـلك بعيداً عن الحشمة التـى يستشـعرها بقلبـه . أى قـد يخـاطب الإنسـان إنساناً آخر فى شكل الاحترام والاحتشام والتعظيـم والتقديـر وليـس فـى قلبه قبض يمنعه من الكـلام .

---

(١) منـازل السـائرين ص ص (٤٨ / ٤٩) وشـرح منازل السائرين ص ص (١٠٢ / ١٠٥)

ويرى أنه على ثلاث درجات :

أ- الانبساط مع الخلق ؛ وهو أن لا تعتزلهم ضناً على نفسك ، أو شحاً على حظك ، وتسترسل لهم في فضلك ، وتسعهم بخلقك ، وتدعهم يطؤونك ، والعلم قائم ، وشهودك المعنى دائم . وهذه هى حقيقة الإنبساط مع الخلق . وهذا لا يعنى أن يكون اعتزال الإنسان للناس بخلاً بنفسه عليهم ، وشحاً على حظه منهم ، إنما قد يجوز أن يعتزلهم لغير هذا المعنى ، وذلك بقصد تصفية حاله مع مولاه ، أو خوفاً من ضرر يدخل عليه من اجتماعه بهم أو لُقياهم ، أنما الإنسان القوى فى نفسه والمتمكن من ذاته ، فإن بسطه معهم يزيده قوة على قوته . بشرط أن يكون الإنسان حال البسط مع الناس غير متعد للحدود، غير غافل عن المعبود.

ب-الانبساط مع الحق . وهو ألا يجنبك خوف ، ولا يحجبك رجاء ، ولا يحول بينك وبينه آدم وحواء . وهى درجة أتم مما قبلها . حيث إن الأولى بسط مع العباد فى الله فيما يبدو من الإنسان من تعامل وسلوك. أما الثانية فهى بسط مع الله ؛ فلا يحيد بك، ولا يقطعك عنه سبحانه وتعالى خوف ولا رجاء . وهذا لا يعنى أن العبد لا يخاف ولا يرجو، بل إن القلب الذى يفارقهما يصاب بالتلف ؛ انما يعنى أنهما متساويان فى أعلى درجاتهما وهى الهيبة والتعظيم والمحبة . حيث إن كل ذى درجة عالية خائف من مكروه ، وراج لدوام إحسانه إليه وفضله ، ولكن لا يقطعه خوفه من الانبساط مع الله سبحانه لما يجده من الشعور

بالمحبة والإقبـــال .

جـ-الانبساط فى الانطواء عن الانبســـاط ، وهــذا يعنـــى رحـــب الهمـــة لانطواء بسط العبد فى بسط الحق جــل جلالـــه . وهـــى أعلـــى ممـــا قبلها . حيث إنـــها متعلقـــة ببســـطة همـــة العبـــد المتعلقـــة ببســـط مولاها ، لما غلب عليه من سعة فضلـــه إليـــها .

ومن ينظر فى تحديـــد مفـــهوم الانبســـاط عنـــد " أبـــى اســـماعيل " يجد أنه يشير إلـــى ذلـــك الشـــخص الـــذى يكـــون علـــى ســـجيته ، دون ضوابط مدنية تحول بينــــه وبيـــن مخاطبـــة النـــاس مســـتخدماً أســـاليب التخاطب التى ترد على لسانه ، وليـــس فـــى قلبـــه مايشـــعره بالامتنـــاع عن الكلام . كما يشير فـــى تحديـــده لدرجاتـــها إلـــى مســـتويات تنـــدرج تحتها :

المســـتوى الأول : الانبســـاط مـــع الخلـــق والـــذى يعنـــى عـــدم اعتزالهم ، والتعاون معهم ، ومســـاعدتهم وإنمـــا يقصـــد اعتزالـــهم فـــى حالة واحدة وهى عندما يريد أن يحاسب نفســـه قبـــل أن يحاســـبه ربـــه. وأنه إذا ما انبسط مع الناس يجـــب ألا يتعـــدى حـــدوده وأن يراعـــى الله حال تعامله معهم ، فإنه بذلك تزداد قوة فى شـــخصيته علـــى قوتـــها .

المستوى الثانى : الانبساط مـــع الحـــق تبـــارك وتعـــالى . وهـــو أن يظل الإنسان مع الله ، وألا يحـــول بيـــن الإنســـان وخالقـــه الانشـــغال بالناس ، وأن يظل علـــى خـــوف ورجـــاء . بمعنـــى أن يكـــون الإنســـان على درجة الهيبة والتعظيم والمحبـــة لخالقـــه .

المستوى الثـالث : الانبسـاط فـى الانطـواء عـن الانبسـاط .
وهذا يعنى ان يظل الدافع فى انبسـاط الإنسـان مـع الله دون توقـف أو انطـواء .

- ومن هذا يبدو واضحاً مفهوم الانبساط علـى أسـاس مـن الثقافـة الاسلامية الدينية الذى يظهر فيمـا يصـدر عـن الإنسـان مـن سـلوك اثناء تعامله مع غيره من الناس . حيث يصبـح الإنسـان المسـلم علـى درجة من الإدراك والانتباه لمراقبة مولاه فـى مختلـف أقوالـه واعمالـه وحالاتـه .

الانفعالات

ويتناول " أبو اسماعيل " فى كتابة "منازل السائرين " جانباً هاماً وأساسياً من جوانب الشخصية الإنسانية وهو الجانب الإنفعالى , فيذكر بإيجاز شديد عدداً من أنواع الانفعالات التى تنتاب الإنسان فى حياته ، وتسهم بدرجة كبيرة فى مدى علاقته بخالقه سبحانه وتعالى ، وما يترتب على ذلك من تحقيق قدر من الصحة النفسية والسواء النفسى فى الدنيا ، والنعيم فى الأخرة ومنها :-

أولا:الخوف الذى يحدده بقوله: [(١)] "الانخلاع عن طمأنينة الأمن بمطالعة الخبر" وهو فى هذا يشير الى تلك الحالة الانفعالية التى تصيب الإنسان وتخرجه من حاله الإحساس بالطمأنينة عندما يصل اليه خبر مفزع يصيب القلب بالاضطراب والقلق- " الانزعاج " وعدم أمنه وطمأنينته. وقد عبر "أبواسماعيل" عن الخوف بزوال ضده وهو "إنخلاع الطمأنينة من القلب" ثم نجده بعد ذلك يحدد عدداً من مستويات الخوف فيعرض.

أ-الخوف من العقوبة ، وهو خوف يصح به الايمان.وهذا النوع من الخوف هو خوف العامة .وهو يتولد من تصديق الوعيد وذكر الجنابة، ومراقبة العاقبة. فإن ذلك من شأنه أن يحدث الخوف فى النفس والقلب.

ب-خوف المكر، وهو إحساس ينتاب الإنسان أوقات المناجاة ، وهو درجة أرفع من الدرجة السابقة ، وتكون من المتقى المستقيم اليقظ ،

---

(١) منازل السائرين ص (٢٠) وشرح منازل السائرين ص ص (٤١/٤٣) .

صاحب الأعمال الطيبة الحسنة وهذا النوع يحدث من بعض النـــاس الذيـــن يشعرون بعظمة وهيبه الخالق.

جـ- خوف هيبة الجلال. وهذا النوع من الخـــوف أقصـــى درجـــات الخوف، وهو عبارة عن حالة إنفعالية تنتاب المناجى وتحـــدث فـــى نفســـه شعوراً بالهيبة تحدث فى أوقات المناجاة.

والخوف كأحد الانفعالات التى تنتاب الإنسان يتحدث عنها كثير مـــن الباحثين فى علم النفس ، كما أنهم قد تناولوه بالبحث والدراسة .الا أنه هنا مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالواقع الدينى للإنسان المسلم.

ثانيا:الإشفاق. الذى يقصد به[1] "استشعار إحساس الحذر مقرونـــا بالترحم" وهو حالة انفعالية يشعر بها الإنسان ، وتدعـــوه إلـــى ضـــرورة استخدام الحذر والترحم . ويرى أنها على ثلاثة انواع:-

أ- إشفاق على النفس ، وذلك بسبب فساد أخلاقها وأفعالها عـــن طريـــق عناد خالقها فيما يختاره ويقضيه لها.

ب- إشفاق على العمل، وذلك بسبب اختلال شـــروط صحتـــه أو الدخـــول اثنائه لافساده.

ج- إشفاق على الوقت ، وذلك بسبب عارض أو حدوث ظروف تحول بيـــن حضور العبد مع ربه, أو الذكر الدائم. أو حـــدوث تشـــويش يشـــغله، فتزهو النفس ، وتنال العُجب . وهذا الإشفاق يجعل الإنسان يكف عـــن

---

(١) منازل السائرين ص (٢١) وشرح منازل السائرين ص ص (٤٣ / ٤٥)

مخاصمة الخلق وحسن التعامل معهم. وهذا المتغـير يعتـبر إضافـة جديدة لمختلف المتغيرات الانفعاليه المعروفة التـي تناولـها علمـاء النفس بالتحديد والدراسة والبحث . حيث لم يتعرض لها أحد منهم ذلك لأنه منبثق من الخلفية الاسلامية التي أوجدت هذا المتغير الذى تتمـيز به الشخصية المسلمة عن غيرها من الشخصيات الأخرى بدرجة اكـبر ولذلك كان موضع اهتمام علماء المسلمين . حيث يشير إلى ما ينبغـى ان يكون عليه الإنسان المسلم فى الحياة الدنيا من الإشفاق الذى يتمثل فى أن يكون الإنسان مستشعراً الحذر الذى يحقق له الراحة والـهدوء النفسى فى الحياة الدنيا، ويكسبه مكانة مرموقة فى الحياة الأخرة .

ثالثا: الخشوع[1] ويقصد به " خمـود النفـس ، وهمـود الطبـاع المتعاظم أو مفزع" وهو بهذا يشير إلى حالة انفعالية أخرى تحدث للإنسـان تبدو فيما يصدر عنه من شعور بالتذلل وسكون الجوارح عند استشعار نظـو الحق سبحانه وتعالى . ويرى أنه على ثلاثة أنواع :

أ-الخشوع للحكم ، وهو الرضا بما يقـض بـه الله ، والاستسـلام لـه ، وانكسار القلب لنظر الحق .

ب-ترقب آفات النفس والعمل ، ويحدث عن ترقب الإنسان لم يحـدث مـن نفسه من آفات تصدر وتبدو فى حركاتها وسكناتها ، لتعـرف وتمـيز الأعمال السليمة من الباطلة ، أو ما يصدر عنها مـن أعمـال الريـاء والعُجب أو لسكونها حالة إقدام الإنسان على عمل تشتهيه النفـس دون

---

(١) منازل السائرين ص (٢١) وشرح منازل السائرين ص ص (٤٥ / ٤٧)

مراعاة الحق سبحانه وتعالى .

جـ-حفظ الحرمة عند المكاشفة ، وتجريد رؤية الفضل ، وبها تتم مراعاة حرمة الإقبال ، وتصفية النفس حال رؤية الأغيار بكمال التعظيم ، ودوام الإستحياء ، ورؤية الفضل لله لا لغيره . وهذه أيضاً إضافة جديدة فى مجال الانفعالات الإنسانية ، وهى الخشوع الذى يصل بالإنسان إلى حالة التذلل والاستسلام بهدف عدم اكشف عما يهتك الحرمة وقد يقع فى هذه الحالة الانفعالية كثير من الناس حفاظاً على حياتهم ، أو كرامتهم أو وجودهم الاجتماعى . إلا أن حديث " أبى اسماعيل " وغيره من علماء المسلمين عن هذا المتغير ينطلق من واقعهم الإسلامى ، وشخصياتهم المسلمة . الأمر الذى يجعلهم يتحدثون عنه فى مجال علاقة الإنسان بخالقه ، ولذلك فهى حالة تدعو الإنسان إلى الالتزام بالأدب والخلق الرفيع حال تصور تواجده بين يدى الله سبحانه وتعالى ، وهو إذا فعل ذلك باستمرار أكسب نفسه هذا السلوك الطيب فى سائر أحواله وتصرفاته الدينية والدنيوية . فضلاً عن أنها تمنع الإنسان من الشطح الفاحش وبذلك يتأدب الإنسان ويعظم خلقه .

رابعا: **الحزن** : ويقصد به " حالة[١] انفعالية تصيب الإنسان يشعر فيها بانقباض القلب الذى يمنعه من الانبساط وقد يصحبه ألم وغم وكمد " ويذكر أن سببه النظر فى أمر مضى ، أو استشعار الإنسان لفوات أمر

---

(١) منازل السائرين ص (١٩) وشرح منازل السائرين ص ص (٤٠ / ٤١)

كان يجب أن يحدث ، أو كان من الممكن حصوله ، أو نزول مكـــروه مؤلـــم في المستقبل ، ويقسمه إلى ثلاثة أنواع :

أ-حزن العامة : وهو الإحساس بالتفريط فى الخدمة أو التورط فى الجفاء ، أو ضياع الأيام نتيجة انشغال الإنسان بالدنيا والكسل فى آداء الأعمـــال الخيرة أو الندم على ما ضاع من الأيام دون أن يكسب منها شيئاً .

ب-حزن الخاصة : وهو حزن متعلق ببعض الأحوال بعد حفـــظ الأعمـــال ؛ كأن يحزن لاشتغال نفسه بغير شهوده لمحبوبه .

جـ-حزن أتم من السابق : وهو حزن على ما حدث من العارضات المشغله عن المقصود ، والإعتراض على الأحكام الجارية بين النـــاس ، وأنـــه يجب أن يتلقاها بالقبول والإحترام ، ما لم تكن من الآثام . وهذا النـــوع من الانفعالات ليس جديداً فى مجال علم النفـــس ، ذلـــك لأنـــه أحـــد المتغيرات التى يتناولها العلماء بالبحث والدراسة وإن كان يدرس تحت مسميات أخرى فى علم النفس وحددت له مصطلحات معينـــة . إلا أن تناول علماء المسلمين لهذا الجانب ينطلق - كما سبق القول - مـــن منظورهم الاسلامى معتمدين فى ذلك على ثقافتهم الدينية ، وعلى مـــا يشغلهم من موضوع الدين والعلاقة بين الإنسان وخالقه .

خامساً : الحياء . ويقصد به[1] " تلك الحالة التى تتولـــد نتيجـــة " تعظيم منوط بود " وهى حالة انفعالية تنتاب العبد حال تواجده مـــع عظيـــم وتحدث هذه الحالة بناء على علم العبد بنظر الخالق إليه وما يتولـــد بنـــاء

---

(١) منازل السائرين ص (٤٢) وشرح منازل السائرين ص ص (٧٨ / ٨٩)

على النظر فى علم القُرب ، فيدعوه إلى المحبة ، وهنا تحدث حالة الحيـاء التى تشوبها الهيبة ، ويرى أنها على ثلاث درجات :

أ- حياء يتولد من علم العبد بنظر الحق ، وهـذا يدعـو الإنسـان إلـى مجاهدة النفس ، حياء من الله ، وهو يصون الإنسان من الوقوع فـى الخطأ . وإن وقع فى اليسير منه رآه قبيحاً . مما يؤدى إلى اسـتقباحه له .

ب- حياء يتولد من النظر فى حلم القرب ، وهو يتولد من إدراكه بـان الله سبحانه وتعالى قريب منه ، وهذا القرب يتم بـدوام الأعمـال التـى يرضى عنها الله .

جـ-حياء يتولد من شهود الحضور ، وهى حالة انفعالية تشوبها هيبـة ، هذه من شأنها أن تجعل الإنسان لا يقدم على عمل لا يرضى عنـه الله حياء منه ، وإدراكاً من الإنسان بان الله يراه . وتحدث الأولى نتيجـة استشعار الإنسان نظر الحق إليه ، والثانية نتيجة علمه بقربـه منـه ولديه ، والثالثة نتيجة الاعتقاد القوى والعلم اليقينى بانه يرى الله فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

سادساً: الورع . ويقصد به " توق[1] مستقصى علـى حـذر أو تحرج على تعظيم ، وهى حالة انفعالية يصل إليها الإنسان بناء على تـرك المنهيات ، وتجنب الشبهات والمكروهات ولا يصل الإنسان إلى هذه الحالـة

(١) منازل السائرين ص (٢٤) وشرح منازل السائرين ص ص (١٤١ / ١٤٤)

إلا بعد أن يزهد فى الحرام ثم يصل إلى مستوى أعلى من الزهـــد ، وهــو الزهد فى غير الله سبحانه وتعالى ، وهذا ما يطلق عليه " أبو اســـماعيل " ورع الخاصة . ويتم ذلك على ثلاث خطوات :

أ- تجنب القبائح لصون النفس ، والحصول على الحســـنات ، وصيانـــة الإيمان ، وبذلك يحفظ الإنسان نفسه من النقص بعدم مخالفة الخالق .

ب-حفظ الحدود عندما لا بأس به . وبها يحصـــل الإنســـان علـــى إبقـــاء الصيانة، والحصول على التقوى ، ويرتفع عن الدناءة ، ويتخلص مـــن اقتحام الحدود ، فيخاف من المتشابه خشية الوقوع فـــى المخالفـــة أو التمادى فى الغفلة . وبهذا يرتقى الإنسان عـــن الصغـــائر ، ودنـــاءة الأخلاق ، والبعد عن الوقوع فى الحدود ويحقق بذلك صون نفسه مـــن العذاب فى الدنيا والآخرة .

جـ-التورع عن كل داعية إلى شتات الوقت ، والتعلق بالتفرق ، وعـــارض يعارض حال الجمع ، وهو ورع من الخواطر الداعية إلـــى تفريـــق البال ، والبعد عن كل عارض يعارض الجمع . أى إفراد الحق سبحانه وتعالى بالقلب والطلب والإعراض عن كل عمل أو سبب يخرج الإنسان عن هذه الحال .

سابعاً : السكينة[١] تشير إلى هدوء النفس وســـكونها وهـــو ليـــس بالهدوء والسكون الذى تتعارف عليـــه ، ذلـــك لأنـــه - كمـــا وصفـــه " الاسكندرى " هو عبارة عن ريح هفافه وشىء - عن لطـــائف صنـــع الله ،

---

(١) منازل السائرين ص (٦٧) وشرح منازل السائرين ص ص (١٤١ / ١٤٤)

يجمع نوراً وقوة وروحاً يسكن إليه الخائف ويتسلى به الحزين والضّجـــر ، ويستكين إليه العصى والجرىء . وإذا حلت بالنفس الإنسانية عُمر القلـــب بمعانيها ، واستخرج الإنسان من هم التدبير . وبذلك يستقيم على الصراط . حيثِ إنه إذا قويت معانى السكينة فى القلب دعت النفس إلى السكينة التـــى تبدو فى سكون الجوارح ، وهدوء المشى ، وتثبيت فى الكلام ، وحياء فـــى الوجه . وهى حالة تنتاب الإنسان المؤمن التقى ، حين تحـــل المصـــائب أو تنزل النزائل حيث يفزع الناس من أمثالها .

ويعتبر هذا المتغير إضافة جديدة فى مجال الحديث عن الانفعـــالات . فضلاً عن أنه متغير يشير إلى تميز الرؤية الاسلامية للجوانـــب الانفعاليـــة لدى الإنسان المسلم ، ومايتيحه الاسلام من امكانيات تحقيق درجـــة أعلـــى من السواء النفسى .

ثامنا : الشوق ، ويقصد به[1] " هبوب القلب إلى رؤيـــة غـــائب " وهى حالة انفعالية تنتاب الإنسان إلى المحبوب لتحقيق ما يتطلع إليه مـــن غائب كشوق الإنسان إلى الجنة ليأمن الخائف ، ويفرح الحزين ، وهو ينتـج عن حب الله سبحانه وتعالى على اساس " إدراك الإنسان لنعمه واعترافـــه بها ، وتفكره فيها . الأمر الذى يؤدى إلى المحبة التى بها يحـــدث الشـــوق إلى الله عز وجل، وهو شوق لا تطفئه التأويلات للنفس أو الحجج إلا لقـــاء مع الله والعودة إليه .

---

(١) منازل السائرين ص (٧٣) وشرح منازل السائرين ص ص (١٥٦ / ١٥٨)

ويرى أنه ياتى على ثلاث درجات الأولى : شوق الإنسان العابد إلـــى الجنة . الثانية: شوق إلى الله عز وجل الذى يكون فيه الإنسان فى حالـــة من الشوق لمعاينة لطائف كرمه وآيات بره واعلام فضله . الثالثة : شـوق نار اضرمتها صفو المحبة . وصاحبها لا يرى لكمال شوقه غير ما اشـتقاق إليه ولا يرده عن مقصوده شيء من التأويلات للنفس والحجج حتى يلقـــى من تبذل فى رضائه الأرواح والمهج .

وهذا المتغير يعتبر من الاضافات التـــى يضيفـــها العـــالم الاســـلامى فى مجال الانفعالات والتى يبرزهـــا فـــى مجـــال علاقـــة العبـــد بخالقـــه ، ويبين مدى هذه الحالة الانفعالية التـــى يكـــون عليـــها الإنســـان . فضـــلاً على ما يترتب على تواجد هذه الحالة لدى الانســـان مـــن اصـــدار أنـــواع السلوك السوى الذى يصدر عنه حال تعاملـــه مـــع غـــيره مـــن البشـــر . حيث يكون التعامل على أفضـــل مســـتوى ، ذلـــك لأن الإنســـان صـــاحب الشوق لله يسعى بكل ما يملـــك مـــن أســـباب إلـــى رضـــاء الله ســـبحانه وتعالى . الأمر الذى يهيىء جواً نفسياً طيباً بيـــن النـــاس.

تاسعاً السرور : ويقصد به "[١] اســـم لاستبشـــار جـــامع " وهـــى حالة انفعالية تنتاب الإنسان حال حدوث مـــا يدعـــو إلـــى الســـرور الـــذى هو أصفـــى من الفرح لأن الأفـــراح ربمـــا شـــابها الأحـــزان ، ذلـــك لأن هناك فرقاً بين السرور والفـــرح الـــذى يعنـــى " حركـــة القلـــب لحصـــول

---

(١) منازل السائرين ص (٨٤) وشرح منازل السائرين ص ص (١٧٦ / ١٧٨)

محبوب وهو مدرك لما يحزن عليه والتى تظهر بشكل واضح فى حركة القلب ، وقد ينتابها قدر من الحزن لسبب من الأسباب أو علة من العلل ، ويكون الإنسان على ادراك بها . ولذلك نجد أن القرآن الكريم وصف حالة السعادة التى يعيشها الإنسان فى الدنيا بأنها " أفراح الدنيا " بينما يرد السرور عند ذكر حال الإنسان فى الآخرة . وهو يرى أن هذا السرور ياتى على ثلاث درجلت :

أ- سرور يذهب بأحزان خوف الانقطاع كظلمة الجهل ، ووحشة الفواق .

ب- سرور بسبب كشف حجاب العلم ، وفك رق التكلف .

جـ-وسرور بسبب سماع الإجابة وهو سرور يمحو آثار الوحشة ويقرع باب المشاهدة ، ويضحك الروح .

ومما تقدم يتضح أن العالم الاسلامى يدرك تمام الادراك الفرق بين السرور والفرح ، الأمر الذى جعله يوضح هذا الفرق حيث اعتبر أن الحالة الانفعالية التى يكون عليها الإنسان وهو مسرور ، تختلف عن الحالة الانفعالية التى يكون عليها وهو " فرح " ومن هذا يبدو واضحاً أن اللفظين لا يدلان على حالة انفعالية واحدة . بل أن كل لفظ يدل على حالة خاصة متباينة عن الأخرى . وهذا يشير إلى مدى الدقة التى يتميز بها العالم الاسلامى عند عرض المتغيرات المختلفة والمتعددة .

وبناء على هذا العرض لبعض الجوانب الانفعالية التى تنتاب الإنسان المسلم . يلاحظ أن الدراسات النفسية التى قدمها علماء الاسلام ومنها دراسة " أبى اسماعيل " تحت أى مصنف من مصنفاتهم ، تهتم اهتماماً بالغاً بالإنسان . حيث نجد أنهم قد رصدوا كثيراً من الجوانب الانفعالية التى يعيشها الإنسان فى حياته الدنيا . ولم تقتصر على ماهو شائع ومعروف من هذه الجوانب فى مجال علم النفس . بل اطلعتنا على حالات انفعالية يتميز بها الانسان المسلم عن غيره من الناس ، لذلك نرى أن "أبا اسماعيل" يعرض حالات انفعالية جديدة كالاشفاق ، والخشوع ، والحياء والورع ، والسكينة ، والشوق . بالإضافة إلى بعض الحالات المعلومة فى مجال علم النفس ، كالخوف ، والحزن ، والسرور ، ومن هذا يتضح مدى ثراء الدراسات النفسية فى هذا المجال .

الدوافع

كما تناول " أبو اسماعيل " فى كتابه منـــازل الســـائرين عـــدداً مـــن العوامل النفسية التى تشكل أهمية فى حياة الإنسان والتى يمكـــن تصنيفـــها تحتَ الدوافع الإنسانية التى أكد أهميتها علماء النفس فى إثبـــات وجـــود الإنسان وتحقيقه ذاته. ومن هذه الدوافع التى استطاع الباحث أن يضع يـــده عليها الرغبة ، والهمة . على اعتبار أنهما دافعان لهما أهمية كبـــيرة فـــى تسيير أمور حياة الإنسان على أساس سليم يمكنه من أن يحيا حياة نفســـية صحيحة - وفيما يلى عرض لهذين الدافعين .

الرغبة:[1] وقد عرفها " أبو اسماعيل " ببيان علاقتها بغيرهـــا مـــن العوامل النفسية وهو الرجاء الذى عرفه بأنه " طمع يحتاج إلى تحقيـق " إلا أن الرغبة سلوك على تحقيق . وهذا يعنى أن الرغبة فى الشـــىء تعنـــى دافعاً لدى الإنسان يدفعه إلى تحقيق هدف معيـــن ، ولا يمكـــن أن يتحقـــق الهدف إلا بعد امتلاء القلب به ، وبكمال صفاته وغلبة الظـــن بحصولـــه ، وقوة العزم ووقوعه بخلاف الرجاء .

وهذا يشير إلى أن الرغبة تختلف عن الرجاء بأنها تدفع الإنسان إلـــى السلوك . بينما الرجاء يظل كحالة نفسية يعيشها الفرد أملاً فى التحقيـــق . كما أن الرغبة تتطلب الجد فى الطلب ، وغلبة الأحوال التى تجعلـــه يحقـــق بقدر ما يسعى إلى تحقيقه ، ولذلك فهى تبعث علـــى الاجتـــهاد وتصـــون

---

(١) منازل السائرين ص (٢٧) وشرح منازل السائرين ص ص (٥٦ / ٥٧)

السالك من الفتور والوهن . وهو يرى أنها على ثلاث درجات :-

أ-رغبة أهل الخير . وتتولد هذه من العلم بقيمة الشيء المرغوب فيه . الأمر الذى يدعو إلى مزيد من الدفع والاجتهاد للحصول عليه ، فلا يكسل أو يصاب بالفتور أو يعود إلى استخدام الرخص البعيدة عن أحوال أهل الجد .

ب- رغبة أرباب الحال . وهى رغبة لا تبقى من المجهود إلا مبذولاً ، ولا تدع للهمة ذبولاً ، ولا تترك المقصود مأمولاً . وهى بذلك تفوق سابقتها. حيث تدفع هذه الرغبة صاحبها فى استمرار القوة على الجد والاجتهاد للحصول على المراد ، فلا يصاب بالضعف والفتور . الأمر الذى يجعل الإنسان يبذل كل ما فى نفسه من مجهود بما يساعد على تعزيز قوته لتحصيل المقصود .

جـ-رغبة أهل الشهود . وهى تشرف تصحبه تقية ، تحمله همة نقية ، ولا تبقى معه من التفرق بقية . وهى درجة تعلو وتفوق ما قبلها . حيث تدفع صاحبها للتعلق بالله سبحانه وتعالى ، ودوام النظر إليه ، فتشرف النفس بإحساس القلب وإدراكه لعظمة الرب تعالى ، واستمرارية الهيبة له . ولذلك يكون صاحبها تقياً أى حذراً وهياباً لله سبحانه وتعالى . وبذلك يصبح الإنسان دائماً مع خالقه .

ولعل ماتقدم يشير إلى أن الرغبة تعتبر من الدوافع التى تدفع الإنسان المسلم إلى الاجتهاد والجد لتحصيل المراد من رب العباد ، وصيانة النفس من الكسل والفتور ، فيأخذ بالأسباب دائماً مجتهداً فى طلب ما يتطلع إليه .

فلا يقع بذلك فى الذنوب والخطايا . وإذا كان هذا هو مفهوم الرغبة من وجهة نظر أحد علماء المسلمين ، فهى بذلك تشكل أهمية بالغة فى حياة الإنسان المسلم لما يكون عليه من مستوى الدافعية التى تمكنه من تحقيق أهدافه وأغراضه وإذا تواجدت هذه الرغبة فى حياته فإنه ينفذ مشيئة الله سبحانه وإرادته من خلق الإنسان ؛ هى عمارة هذا الكوكب الذى يتطلب ضمن ما يتطلب العمل ، ونشر أسس الحياة الإنسانية السليمة . والإنسان فى رغبته هذه لتحقيق الأهداف والأغراض المقصودة يتطلع إلى الله ، ويسعى بمختلف الطرق للتقرب إليه ، فتشرق النفس بعظمة الرب ، وهيبة جلاله ، وهنا يصل الإنسان إلى درجة من التقوى التى تعينه على أن يسلك سلوكاً سليماً فى حياته الدنيا ابتغاء رضا الله والتقرب إليه . الأمر الذى يجعل السلوك الإنسانى سلوكاً سوياً يتيح قدراً كبيراً من التعاون على اساس من المحبة فى الله تدفع الجميع إلى نشر الخير كل الخير على الأرض .

الهمة : ويقصد بها " أبو اسماعيل " ما يملك الانبعاث[١] للمقصود صرفاً ولا يلتفت عنها . أى أنها القوة الدافعة للحصول على المقصود ، وأن قوة هذا الدافع قوة مستمرة لا تجعل صاحبها يضعف أو يتحول إلى غير المقصود ؛ وهى على ثلاث درجات :

الأولى :همة تصون القلب من خسة الرغبة فى الفانى ، وتحمله على

---

(١) منازل السائرين ص ص (٦٩ / ٧٠) وشرح منازل السائرين ص ص (١٤٧ / ١٤٨)

الرغبة فى الباقى. وهى بذلك تعنى تلك القوة الشديدة التىتدفع صاحبها إلــى ممارسة الأعمال الخيرة ، وبذلك يتحول الإنسان من ممارســـــته لأعمــال الدنيا الفانية إلى أعمال الآخرة الباقية وبذلك يظل فى عمل دائم ولا يتوانــى أو يكسل فى كل ما يقصده أو يسعى إليه .

والثانية : هى الهمة التى تورث انفه من المبالاة بــالعلل ، والـــنزول عن العمل ، والثقة بالأمل . وهى درجة أتم مما قبلها . حيث كــان للأولــى أثر صيانة قلب الإنسان من الاشتغال بأعمال الدنيا الفانية ، ودفعه لممارسة أعمال الآخرة الباقية . إلا أن الثانية تدفع صاحبها إلى إتقان الأعمال الخيرة التى تنفعه فى الحياة الآخرة . فلا يتعلق إلى السكون بالأسباب والعلــل ، أو أمل يمنعه من المبادرة فى الحال إلى ممارسة الأعمال الحسنة وإتقانها .

والثالثة : هى همة تصاعد عن الأحوال والمقامـــات ، وتنحــو عــن النعوت نحو الذات . وهى أرفع مما قبلها . حيث يصبح صاحب هذه الدرجـة من الهمة ناظراً إلى الله سبحانه وتعالى فى كل حال ومآل ، وبذلك لا يكــون غافلاً فى أى عمل من الأعمال أو حال من الأحوال عن الحـــق طلبــاً فــى الجزاء منه سبحانه وتعالى . فتدفع صاحبها إلى الاشتغال بجلال مالكــــها و كماله ، وعظمته وكبريائه .

إن الفاحص لمفهوم الهمة كما حددها " أبو اســـماعيل " يــرى أنـــها تختلف فى قوتها كدافع من الدوافع الإنسانية وخاصة عن دافـــع الرغبـــة ، ذلك لأن الهمة تعتبر ذات قوة دفع مستمرة الدفع لا تفـــتر عــن ممارســـة الأعمال التى تحقق الأهداف المنشودة . وأنه قد حدد لها ثلاث مســـتويات ،

ولكل مستوى من هذه المستويات أهدافه الخاصة ، فالأول يهدف إلى صيانة قلب الإنسان من الاشتغال بأعمال الدنيا الفانية ، ودفعه لممارسة الأعمال التى تنفع فى الآخرة . والثانى يهدف إلى دفع صاحبها إلى دقة واتقان الأعمال الخيرة التى تنفعه فى الحياة الآخرة . وهى بذلك لا تعطى لصاحبها الفرصة للأخذ بالعلل، أو أمل ما يمنعه من المبادرة السريعة لممارسة الأعمال الحسنة واتقانها . والثالث منها ؛ يهدف إلى همة دائمة الدفع مستمر لا تفتر - تجعل صاحبها فى حالة نظر دائم إلى الله . الأمر الذى لا يجعله غافلاً - ولو للحظة - فى أى عمل من الأعمال أو حال من الأحوال طلباً للجزاء من الله سبحانه وتعالى.

ومن الملاحظ - أيضاً - أن الرغبة ، والهمة كدوافع إنسانية تدفع صاحبها لممارسة الأعمال وإتقانها تقرباً إلى الله عز وجل ، وأملاً فى الحصول على الثواب فى الدنيا والآخرة وانشغالاً بجلاله وعظمة كبريائه . أى أنها دوافع للارتباط بمنهج الله - قولاً وعملاً - بغرض تحقيق الهدف الأسمى وهو التقرب إلى الله ، والحصول على رضاه . كما يمكن القول بأن الهمة تعتبر - كدافع - إضافة جديدة للدوافع المتعارف عليها فى مجال علم النفس .

المراجع

١-ابن القيم الجوزية. مدارج السالكين جـ١. تحقيق محمد حامد الفقـــى . مطبعة السنة المحمدية . القاهرة : ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م .

٢-ابن قيم الجوزية . مدارج السالكين جـ٢ . تحقيق محمد حامد الفقـــى . مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة : ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م .

٣-ابن قيم الجوزية . مدارج السالكين جـ٣ . تحقيق محمد حامد الفقـــى . مطبعة السنة المحمدية . القاهرة : ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م .

٤-أبواسماعيل عبد الله الأنصارى الهروى . منازل السائرين . تحقيق الأب س . دى لوجيـــه ٣٩٦ / ٤٨١ هـــ / ١٠٠٦ / ١٠٨٩م دى بوركى الدونيكى مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثـــار الشرقية القاهرة : ١٩٦٢.

٥-عبد المعطى اللخمى الاسكندرى . شرح منـــازل الســـائرين . مطبعـــة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٤.

٦-نبيه إبراهيم اسماعيل . الصحـــة النفســـية للطفـــل ، مكتبـــة الأنجلـــو المصرية، القاهرة : ١٩٨٩ .

٧-نبيه إبراهيم اسماعيل . من أسس الصحة النفسية فى الإسلام . مطبعـــة الولاء .شبين الكوم : ١٩٩٣ .



من الدراسات النفسية
في
التراث العربي الإسلامي

الدراسة الرابعة

الدراسات النفسية
عند
ابن قيم الجوزية
(٦٩١/ ٧٥١هـ)

تعريف بابن قيم الجوزية:

هو الشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد أبى بكر بن أبـــى الزرعـــى المشهور بـــابن قيم الجوزية الدمشـــقى رحمة الله تعالى ورضـــى الله عنة . وأشتهر بهذا الاســـم - ابن قيم الجـــوزية - لأن والـــده كـــان قيمـــاً للمدرسة الجوزية الكائنة فى ســـوق البزوريـــة بدمشـــق. ولـــد سنه (٦٩١ هـــ) فى قرية زُ رع مـــن قرى حوزان قـــرب دمشـــق . وتلقى العلم عن مشايخ تلك الديار فى عصره ؛ فسمع الحديـــث ، والفقـــه، والأصول ، والفرائض على كثير من علمـــاء عصـــره . وتوفـــى فـــى عام (٧٥١ هـــ).

وقد ترك عديداً من المؤلفات فى مختلـــف العلـــوم والفنـــون؛ فـــى التفسير، والحديث ، والفقة ، والأصول والعقـــائد، والديانـــات، والطـــب، والنحو، والأدب،والتصوف، والأخلاق، والفروسية،وغيرها مـــن المجـــالات العلميـــة والفنية، والتى تشير إلى أنه - كما وصفه العلمـــاء - عـــالم فياض، واسع العلم والمعرفة، وأنه ذو رأى سديد، وأنه متبحر فى كل فـــن . كما أنـــه مؤلف واضح الرؤية، سلس العبارة، دقيـــق اللفـــظ ، واســـع التبويب، والتفصيل، والتقسيم، والتنويع، والتحديد، والجمـــع،والتفريـــق، وكلها دلالات على ماكان يتمتع به ابن قيم الجوزية من امكانيات وقـــدرات عقلية عالية.

وكان رحمه الله شديد الولع بالعلم والمطالعـــة، والكتابـــة، واقتنـــاء الكتب حيث يذكر المترجمون له أنه كان يقتنى من الكتب والمؤلفات ما لـــم

يحصل لغيره كما أنه كتب بخطه مالا يوصف كثره ولذلك نجد أن مؤلفاته قد قاربت المائة مؤلف.

هذا ؛ وقد دَّرَس بالمدرسة الصدرية، وأم بالدرسة الجوزية مدة طويلة. وكما هو واضح مما سبق؛ فإنه يتميز بحياة علمية واسعة، ويحتاج إلى دراسة عميقة ودقيقة لحياتة ،وأمانته، وآرائه فى مختلف العلوم والفنون، وفتواه، وآرائه الخاصة ، وتلاميذه، ومؤلفاته، وأثره الفكرى الممتع الدقيق الحى فى عقول وقلوب أهل العلم والمعرفة من زمنه إلى يومنا هذا. هذا؛ فضلاً عن شهادة كثير من العلماء بقيمة علمه ، ورقى تفكيره، وعظيم اهتمامه بالانسان المسلم وسلوكه. فقد جاء فى طبقات الفقهاء والمحدثين من أصحاب الأمام المبجل سيدنا الإمام أحمد بن حنبل تأليف الحافظ الامام عبدالرحمن بن رجب البغدادى الحنبلى- ما لفظه- أن محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعى الدمشقى الفقيه الأصولى المفسر .. ابن قيم الجوزية أنه عالم بعلم السلوك. وهذا ما دعانى للبحث فى مؤلفاته عن الدراسات النفسية فى التراث الاسلامى.

هدف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة الكشف والتعرف على الدراسات النفسية فى التراث العربى والاسلامى، وبيان وجهتها وأغراضها التى من أجلها أجريت هذه الدراسات . كما تهدف إلى لفت أنظار الدارسين والباحثين إليها للعمل على حصرها وجمع

شتاتها من أمهات الكتب الإسلامية ، وبيان أهميتها وقيمتها في حياة الإنسان وآخرتة.

نشأة الدراسات النفسية:

من المعلوم أن كل دراسة من الدراسات العلمية، سواء أكانت على المستوى النظرى أو التجريبى تحدد أهدافها التى تسعى إلى تحقيقها ، أو تبنى فروضها التى تريد أن تتحقق من صحتها أو بطلانها. والمتتبع للدراسات النفسية فى التراث الاسلامى ، يدرك تمام الإدراك الظروف التى نشأت فيها هذه الدراسات ، والأهداف التى حددت سلفا، قبل إنجازها . حيث إن الدين الاسلامى قد انتشر وعم كثيرا من الأرض المعمورة ،وسعى الناس للتعرف عليه ودراسة كنه وحقيقة هذا الدين، و ما يترتب على الاعتقاد به فى حياتهم الدنيا .

ولهذا وقع على عاتق علماء الدين الإسلامى مسئولية التعريف بحقيقة هذا الدين، وبيان وتوضيح القصد منه ، وأهمية الدخول فيه ، والإيمان به، والالتزام بمنهجه،وتنفيذ أوامره، والإلتزام بما نهى عنه الله . كذلك بيان وتوضيح علاقة هذا الدين بالحياة الدنيا والآخره والعائد المثمر على حياة الإنسان إذا ما التزم به وبمنهجه . فكانت كتاباتهم فى حقيقة الإيمان ، والعقيدة، والفقه،والأصول... وغيرها من العلوم ذات الارتباط الوثيق بالدين بشكل مباشر، ثم جاءت بعد ذلك الدراسات التى توضح طبيعة العلاقة بين الدين وحياة الإنسان ، والتى من بينها الدراسات النفسية لتبين للناس مدى ارتباط الدين الإسلامى بحياة الإنسان وكيفية معالجة كثير من

الأمور النفسية والعقلية والاجتماعية التى تواجه الإنسان المسلم فى حياتـــه. فضلاً عن بيان ما تكون عليه دوافع الانسان المســـلم وانفعالاتـــه وكيفيـــة اشباع حاجات الإنسان ومتطلباته فى ظل هذا الدين وذلـــك بـــهدف تحقيـــق مستوى أفضل من السواء النفسى والرقى الإنسانى.

ومن الملاحظ- أيضاً - أن علماء الإسلام عندما تفضلوا ببيان كل مـــا تقدم كان هدفهم الأسمى كتاب الله وســـنة نبيـــه ﷺ ، وكيفيـــة عبـــادة الرحمن عبادة تليق بعظمته وجلاله، بهدف تحقيق رضـــاه ، لمـــا يـــترتب علـــى ذلك من نفع فى حياة الإنسان الدنيا والآخرة . ولذلك يبدو واضحـــاً إنه ليـــس هناك انفصال بين هذه الدراسات النفسية وبين الدين الإســـلامى، سواء على مستوى كلياته أو جزئياته.

لقد تناول " ابن قيم الجوزية " فى مؤلفه" مدارج السالكين " عدداً مـــن العوامل والمتغيرات التى يمكن تصنيفها تحت علم النفس ، فقد تحدث عـــن النفس ومفهومها؛ فعرفها بأنها[1] ما كان معلوماً مـــن أوصـــاف العبـــد، مذموما من أخلاقه وأفعاله سواء أكان كسباً، أو خلقياً" ومن هـــذا يفـــهم أن النفس الإنسانية يمكن التعرف عليها عن طريق ما يصدر من صاحبها مـــن سلوك، سواء كان هذا السلوك مكتسباً أو خلقياً.

ويذكر أنه يستدل على نوعية النفس عن طريق ما يظهر عنها مـــن الصفات. حيث إن السلوك الصادرعن نفس صاحبها يشير إلى أنـــها نفـــس

(٢) مدارج السالكين جـ (٢) ص (٨/٦)

مذمومة[1] ويؤكد مع غيره من العلماء علـــى أن النفـــس الانســـانية إذا تلطفت ، وفارقت الرذائل صارت نفسا نقية تصل فى صفاتهـــا إلـــى حـــد الروح.

هذا ؛ ويتعرض" ابن القيم"لأنواع النفس، ويدعم وجهة نظره فيـــهاعن طريق وجهات نظر الآخرين فى النفس . فيذكـــر أن " ســـعيد بـــن جبيـــــر وعكرمة " يريان أن النفس اللوامة؛ هى التى تلوم . أى هى تلك النفس التى تلوم على فعل الخير والشر، ولا تصبر على السراء، ولا علـــى الضـــراء . على حين يرى " قتادة" هى تلك النفس الفاجرة . ويـــرى " مجـــاهد" أنـــها النفس التى تندم على ما فات؛ وتقول : لو فعلت ؟ ولـــو لـــم أفعـــل ؟ إلاأن "الفراء" يرى أنه ليس من نفس بَرَّة، ولا فاجرة إلا وهى تلـــوم نفســـها؛ إن كانت عملت خيراً قالت : هَلاَّ زدت. وإن عملت شراً قالت: ليتنى لم أفعـــل . بينما يرى "الحسن"أن النفس المؤمنة هى النفس اللوامة، وذلك لأن المؤمـــن ما تراه إلا يلوم نفسه. حيث يعلن ويقول : ما أردت بكلمة كذا ؟ ومـــا أردت بكذا؟ وأن الفاجر يمضى قدماً ولا يحاسب نفسه ولا يعاتبها . هذا؛ ويشـــير كذلك إلى رأى "مقاتل" الذى يرى أن النفس اللوامة هـــى النفـــس الكـــافرة، والتى تلوم نفسها فى الآخرة على ما فرطت فى أمر الله فى الدنيا. .

وهو يصور النفس على أنها جبل كبير ضخم تعوق الإنسان للســـير فى طريق الله، وأنه يوجد من الناس من يعبر هذا الجبل بما فيه من أســـباب الإعاقة للوصول إلى الله . ويذكر أن الطريق سهل وميسور . ومنـــهم مـــن

---

(١) مدارج السالكين جـ (٣) ص (٢٤٧)

يرى أنه طريق صعب وعر به من العقبات ما تحول بينه وبين ربه . ويذكر أنه لا يصل إلى الله إلا النفس المؤمنه، والتى على درجة عالية من اليقيـــن تعين الإنسان على التخلى عن رغباته وشهواته التى تغضب الله . والأمـــر على خلاف ذلك بالنسبه للنفس ضعيفة الإيمان مخلخلـــة اليقيــن، يعينــها الشيطان على عدم الوصول إلى الله فيخيفها مـــن صعوبـــة عبــور الجبــل وارتفاعه، وما به من عقبات وأشواك وأودية وشعاب. وينتهى " ابن قيـــم الجوزيـــة " إلى[1] أن النفــس نفــس واحــدة وليســت ثلاثـــــة أنفــس بالــذات والحقيقــة أنهــا لــها صفــــات ثلاثـــة ؛ هـــى المطمئنـــة، واللوامة ، والأمارة.

هذا ؛ وقد تناول "ابن القيم" فى كثير من مؤلفاته الحديث عن العـــديد من المتغيرات والعوامل النفسية التى أردت الإشارةإليها كمثير لطلاب العلـم والمعرفة، والراغبين فى عملية البحث والدراسة عن الدراسات النفسية فـــى كتب التراث، كلبنة أولـــى وأساســية للانطــلاق فـــى توضيــح المدخــــل الإســـلامى وبيان وجهة نظره فى مختلف مجالات علم النفــس ومتغيراتـــه وعوامله.

ومن بين المتغيرات التى تعرض لها "ابن القيم" التفكر[2] الذى يعتبره ضرورة وسببا من أسباب المعرفة، وعن طريقه يتمكـــن الإنســـان مـــن الوصول إلى حقائق الإيمان، وإلى درجة الإحسان ، والتى تعتــبر خاصيـــة

---

(١) مدارج السالكين جـ (١) ص ص (٤٤٠ / ٤٤٥)

(٢) مدارج السالكين جـ (١) ص ص (٤٤٠ / ٤٤٥)

من خصائص ذوى العقول؛ ويعتمــد"ابن القيم"فى بيـــان وتوضيــح هــذا العامل النفسى على ما ذكره " صاحب المنازل" [1] فى هذا المجـــال . حيــث أورد مقولته التى تقول بأن "التفكر هى التماس الغايات من مبادئها" .

كما يشير "ابن القيم" - بالإضافة إلى ما تقدم - إلـــى أنـــه وســـيلة الإنسان لاستدراك الأهداف وتحقيقها. كما أنه وسيلة للحصول على التذكــر، علىأساس أن التذكر يحتفظ بالمعانى التى حصلت بالتفكر من مواقع الآيـــات والعبر . أى أن هذه المعانى التى يحفظها التذكر هى نتاج عملية التفكر .

وأن هذه المعانى التى احتفظ بها فى الذاكرة تكون سببا فـــى تقويـــة عزم الإنسان المؤمن على السير بحسب قوة الاستبصار . حيث إنـــه كلمـــا اشتغل الفكر بالإيمان ازداد الشعور به، والبصيرة فيه، والتذكر له .

ومما تقدم من عرض لوجهـــة نظر "ابن القيم " فى عـــامل التفكـــر يتضح قيمته وأهميته بالنسبة لحياة الإنسان فى الدنيا والآخـــرة . حـــيث يقوى به إيمان الفرد ، ويزداد إيماناً على إيمانه لوصوله إلى أعلى درجـــة من درجات الاستبصار باستخدامه فى معرفة الحقيقة وإدراكها إدراك العيـن، والوصول إلى اليقين الذى لاشك فيه .

وبهذا يبين "ابن القيم" فوائده التى تحددها ثمرتيـــن - علـــى حـــد تعبيره- الأولى: " حصول المطلوب تاما بحسب الامكان" . والثانية" العمـــل بموجبه فى رعاية حقه " . حيث إن العمل الصالح هو ثمرة العمـــل النـــافع

---

(١)أبو اسماعيل الهروى ص (١٣)

الذى هو ثمرة الفكر .

وبناء على هذه الرؤية التى قدمها "ابن القيم " لعـــامل التفكـــر فإنـــه يمكن القول بأن علماء الإسلام لم يهملوا مثل هذا العامل لما له من أهميـــة فى إحساس الإنسان بوجوده، وشعوره بذاته، ووسيلته للإحســـاس بـــالأمن والطمأنينة عن طريق كشف الحقائق وبيان ما هـــو غامض. الأمـــر الـــذى يريح الإنسان فى حياته الدنيا، ويحقق له الخـــير كل الخير فـــى الآخـــرة . وذلك بفضل تفكره واستخدامه لعقله فى الوصـــول إلـــى الحـــق ومعرفـــة الحقيقة .

ولهذا يؤكد علماء المسلمين على أهمية التفكر والتفكير لأنها وظيفـة أساسية وضرورية فى حياة الإنسان المسلم . حيث يصل بها إلـــى حقيقـــة الإيمان، وإدراك دوره فى الحياة، وبيان وتوضيح قدرة الخـــالق، ونعمـــه على الإنسان التى لاتعد ولاتحصى . الأمر الـــذى يلزمـــه بصـــدق الأقـــوال والأفعال والأعمال مع الله ثم مع البشر، فيصبح كل ما يصدر عن الإنســـان من سلوك نمطاً صحيحاً، فيشعر بالسواء النفسى وينعم به فى الدنيا، وينـــال جزاءه فى الآخرة .

التذكر:[١]

ويتناول " ابن القيم " الحديث عن عامل التذكر الذى يعتـــبر ضـــرورة من الضرورات اللازمة لإحداث النتائج العلمية بجانب التفكر . حيـــث يـــرى

---

(١) مدارك السالكين جـــ (١) ص ص (٤٤٠ / ٤٤٥)

أنهما معاً يثمران أنواع المعـارف فضـلاً عن أنهما يمكنان الإنسان مـن معرفة حقائق الإيمان والإحسان . ويرى أنهما سمتان ضروريتان فى حـياة الإنسان حتى يفتح الله عليه أبواب الخير والبركة . ويؤكد على أن الإنسـان "لايزال بتفكره على تذكره وبتذكره على تفكره " حتى يفتح قلبه بـإذن الله، ويدخل الإيمان فيه . ويستشهد بقول " الحسن البصرى " فى هذا المجـال- لبيان أهمية وقيمة التذكر، وأثره فى عملية التفكير - "مـازال أهـل العلـم يعودون بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر وينطقون القلـوب حتـى نطقت" .

ويعلق "ابن القيم " على ما ذكره " صاحب المنازل " فـى مجـال التذكر بأن "التذكر وجود" أى أن إحساس الإنسان بوجوده يكون بقدرتـه على التذكر. كما أن التذكر ضد النسيان . وأن به يتم حضور صورة المذكور العلمية فى القلب . وأن مجئ التذكر على وزن (التفعل) لحصـول التذكـر بعد مهلة وتدرج؛ كما هى الحال فى التبصر، والتفهم، والتعلم . ومن أجـل ذلك يرى "ابن القيم" أن منزلة التذكر مـن التفكر مـنزل حصـول الشـئ المطلوب بعد التفتيش عليه . كما أنه يرى أن بالتذكر تزول غفلة الإنسان .

هذا؛ ويعتبر "ابن القيم " أن (التذكرة) آلة (الذكر)، كما أن (التبصرة) آلة (البصر) وأنهما من سمات أهل الإنابـة والرجـوع إلـى الله سـبحانه وتعالى. وأن الإنسان إذا أراد التذكر لابد أن يكون خاليـاً مـن المشـاغل، ومستعدا للتذكر . وإلا فلا يحدث التذكر، وبذلك لا تحصل له الذكرى. .

وهو بهذا البيان والتوضيح لعامل التذكر يبرز أهميته وضرورته فـى

حياة الإنسان الدنيا والآخرة . وأنه بدون التذكر لا يســـتطيع الإنســان أن يستمر فى حياته الدنيا بالصورة والشكل الذى ينبغى أن يكون عليه السـلوك الإنساني السليم، والذى به يستطيع أن يحقق ما يتمناه فى حياته الآخــرة . حيث إن استخدام الإنسان لهذه القدرة تجعله لا يغفل سبب وجوده وحياتــه، فيسعى بكل مــا يملك من قــوة عقليــة وحســـية وماديـــة لتحقيـــق الــخير لـــه ولغـــيره مــــن النـــاس . ومن هنا يكـــون التذكــر ســبباً رئيسياً من الأسباب التى تعين الإنسان على إصدار أنماط السلوك الصحيح، والتى تعتبر وسيلة للحياة الصحيحة ورصيداً له فى الآخرة .

ولهذا نجد أن "ابن القيم" يبيـــن فـــائدة التذكــر بأنـــها "الانتفــاع بالعظة" أى بما يسمعه من الـــهدى والرشــد، والنصـــائح ســواء جــاءت على لســـان رسول اللهﷺ أو على لســـان عامـــة النـــاس فـــى مصـــالح الدين والدنيـــا . فضـــلاً عــن الاســتبصار بـــالعبرة . بمعنـــى أن هـــذا الاستبصار يعمل على زيـــادة البصـــيرة ممـــا كـــانت عليـــه مـــن منزلـــة التفكر وذلك بقوة الاستحضار والتذكـــر الـــذى يتــم عــن طريــق تعقــل المعانى التى حصلت بـــالتفكر .

هــذا ؛ وعندمـــا يتنـــاول "ابـــن القيـــم " هذيـــن العـــاملين - التفكروالتذكر- بالحديث فإنه يعرضهما من خــلال وجهــة نظــر الإســلام والمســلمين . ويربطـــهما بالثقافـــة الإســلامية موضحـــاً قيمتـــهما فـــى تعميـــق إيمــــان المؤمــــن وحســــن اســــتثماره فـــى حياتـــه الدنيـــا والآخــرة .

الاغتراب:

ويتعرض "ابن القيم "[١] لعامل نفسى آخر من العوامل التى اهتم بـها كثير من علماء النفس فى العصر الحديث . ويعتمد " ابن القيم " فى حديثـه عن هذا العامل على ما أشار إليه "صاحب المنازل" ، ويتفق معه فى تحديـد مفهوم الاغتراب، يرى أن الاغتراب حالة نفسية تعنى الإنفراد عن الأكفـاء . ويذكر أن لحالة الاغتراب علامات منها؛ انفراد الإنسان بوصـف شـريف دون أبناء جنسه، وأن هذا يجعله غريبا بينهم لعدم المشاركة .

كما يذكر أن الغرباء هم هؤلاء المؤمنون الذيـن يـزداد إيمانـهم إذا نقص إيمان الناس ، وهم الذين يصلحون إذا فسد الناس، وأنهم هم الذيـن يزيدون خيراً وإيماناً وتقى إذا نقص ذلك عند النـاس . وهـو يعتمـد فـى بيان وتحديد الغرباء على أحاديث رسول الله ﷺ .

هذا؛ ويذكر عدداً من أنواع الغربة متفقاً فى ذلك مع " صـاحب المنـازل " منها:

غربة عن الأوطان* : وهى غربة بالأبدان؛ ويرى أنـها غربـة لاتحمـد ولاتذم.

غربة الحـال : وهى غربة يشعر بها الإنسان الصالح فى زمـن فيه قوم فاسدون أو وجد عالم بين قوم جاهـلين،

---

(١)مدارج السالكين جـ (٣) ص ص (١٩٤ : ٢٠٥)

* ليس الغريب من تناءت دياره ؛ ولكن من تنأين عنه غريب .

أو صادق بين قوم منافقين .

غربة الهمـــــــــــة : وهى غربة يشعر بها الإنسان لطلب الحق.

ومن هذا يتضح أن "ابن القيم" قد تناول عامل الاغـــتراب بالدراســة والبحث والتوضيح كأحد العوامل النفسية التى تعترى حياة الإنسان . ولـــهذا فقد سعى لتحديدها وتفسيرها[١] وتوضيحها وبيان أنواعها . وهـــو يـــرى كذلك الغربة قد تكون غربة عن المكان أو غربة عن الزمان أو غربة عـــن الأقوام .

الطمأنينة:

وهى احد العوامل النفسية التى كانت موضـــع اهتمـــام عنـــد " ابـــن القيم"[٢] . حيث تناولها والبيان ، ولذلك نجده قد عـــرض لـــرأى "صـــاحب المنازل"[٣] فى الطمأنينة فيذكر تعريفه لها بأنها :- ســـكون يقويـــه أمـــن صحيح ، شبيه بالعيان . ثم يوضح "ابن القيـــم" الفـــرق بيـــن الطمأنينـــة والسكون وذلك لبيان وتوضيح هذا المفهوم . فيرى أن الطمأنينة "إحســـاس بالراحة والهدوء النفسى لايفارق صاحبه " وهذا بخلاف السكينة التى يـــرى أنها "احساس بالراحة والهدوء النفسى يكون حينا بعد الحين " .

ويستمر "ابن القيم" فى بيان هذا المفهوم بضرب الأمثلة التـــى تلقـــى

---

(١) كتاب الأرواح ص ص (٤٠٧ : ٤١٠)

(٢) مدارك السالكين جـ (٢) ص ص (٥١٢ : ٥٢٠)

(٣) أبو اسماعيل الهروى ص (٣٩) .

مزيداً من الضوء على مفهوم الطمأنينة فيقول : "يقـال اطمـأن بالمكـان والمنزل : إذا أقام به . وهو يرجع سبب حدوث هذه الطمأنينة إلـى صحـة هذا الأمن المقوى للسكون ، الشبيه بالعيان إلى انتفاء الظنـون والأوهـام إنتفاءً تاماً . الأمر الذى يجعل الإنسان يشاهد ما يطمئن به ، وبذلك ينتفـى قلق قلبه ، فلا يضطرب أو يرتاب فيحدث بذلك الإحسـاس بالطمأنينـة . أى أنها تحل فى قلب الإنسان نتيجة علم وخبرة بأسـباب حدوثـها ، واليقيـن بالحصول عليها بصورة دائمة ومستمرة . بينما تكون السكينة – كما سـبق الإشارة إليها – ثبات القلب عند حدوث أوهجوم المخاوف عليه .

هذا ؛ ويلاحظ أن "ابن القيم " قد سعى لتحديد هذا المفهوم فيذكـر أن الطمأنينة هى" سكون القلب إلى الشىء ، وعدم اضطرابه وقلقه " . وهـو يرى أن الإنسان المؤمن لايمكن أن يحقق الإحساس بالطمأنينة إلا بذكـو الله. فعندما يضطرب قلب المؤمن ، ويصاب بالقلق لاسبيل إلى حدوث الطمأنينـة إلا بذكر الله ، ويكون ذلك بقراءة القرآن الكريم . حيث يتـم عـن طريـق قراءة القرآن طمأنينة قلب المؤمن الذى يشكل أهمية بالغة فى مدى إيمـان العبد ويقينه بالله حق اليقين . وعند حدوث اليقين ينتفى الشك الذى يحـدث الاضطراب والقلق ، ويتحقق الإحساس بالطمأنينة .

ومما تقدم من بيان لمدى اهتمام "ابن القيم" بأحد العوامـل النفسـية التى كانت ولا تزال موضع اهتمام علماء النفس فى العصر الحديـث وهـو عامل الطمأنينة يتضح أنه قد أدرك قيمـة هـذا العـامل فسـعى لبيانـه وتوضيحه، وجعله أحد المباحث الهامة فى كتابه – مـدارج السـالكين –

حيث بينه ووضحه عن طريق الفرق بينه وبين عامل السكينه الذى يعد من العوامل النفسية التى يحظى بها العبد المؤمن عند حدوث المصائب أو المكروه . فضلاً عن ذكر بعض وجهات نظر من سبقوه فى تناول هذا المفهوم وتحديده . وبالإضافة إلى تحديده له فقد بين المصدر الأساسى والأول الذى يمكن أن يعين العبد المؤمن على تحقيق أكبر قدر ممكن من الإحساس بالطمأنينة وهو قراءة القرآن الكريم الذى يزيل ما قد يعلق بنفس العبد من أسباب الشك التى تؤدى الى الإضطراب والقلق ، وبذلك يكون قد أسهم "ابن القيم " فى بيان وتوضيح هذا العامل وكيفية تحقيقه كى يحياه الإنسان المسلم وهو يتمتع بأكبر قدر ممكن من السواء النفسى وذلك عن طريق اليقين بالله الواحد الأحد .

القلق :

ويتناول "ابن القيم "[١] القلق كأحد المتغيرات النفسية التى تصيب الإنسان من حين لآخر؛ وهو عندما يتحدث عن هذا المتغير يشير إلى وجهة نظر صاحب المنازل فى القلق الذى يرى "أنه قوة الشوق مع التجرد عن الصبر " وعندما يتناول هذا المفهوم بالتوضيح والشرح يذكر أن صاحب المنازل قد رأى أن القلق يكون على ثلاث مستويات الأول: قلق يضيق الخلق ، أى يضيق خلق صاحبه على احتمال الأغيار ، فلا يبقى فيه اتساع لحلمهم . والمستوى الثانى : وهو القلق الذى يحدث بسبب بغض الخلق ، وهو ذلك القلق الذى يصيب الإنسان إذا تواجد فى وسط اجتماعى

(١) مدارك السالكين جـ (٣) ص ص (٥٩ : ٦٢)

مع وجود التنافر بينه وبين من يخالطــهم فــى هــذا الوســط الإجتمــاعى
والمستوى الثالث : وهو ذلك القلق الذى يحدث نتيجــة ذكــر المحبــوب ،
وعندها يشعر الإنسان باللذة لأنه حتى وإن أدى إلى الموت فإنه يتلــذذ بــه
كما يتلذذ المسافر بذكر قومه على أهله وأحبابه .

كما يتناول تحديد مفهوم القلق ؛ فيعتبره "تجريد الشــوق بإســقاط
الصبر " ويرى أن القلق الذى يصيب الإنسان ، يقوى ويتزايد حتى يــورث
القلب حالة شبيهة بحالة الظمآن إلى الماء .

ومن استعراض وجهة نظر "ابن القيم "فى القلق وبيــان مفهومــه
يتضح أن القلق من وجهة نظر الإسلام لا يعن أو لايصل إلــى حــد القلــق
المرضى . بل هو قلق صحيح . حيث يشير إلى القلق الذى يصيب المســـلم
ويؤدى إلى صحة إيمانه . لأن المسلم المتبع لمنهج الله ســـبحانه وتعــالى
لايقع فريسة لمثل أنواع القلق المرضى الذى يتحدث عنه علمـــاء النفــس
وفق النظريات النفسية فى هذا العصر . ذلك لأن المنهج الإسلامى قد حـــدد
الطرق السليمة التى تعين الإنسان المسلم على تخطى لحظـــات الإحســاس
والشعور بالقلق إلى حالة الاستقرار النفسى ،وخاصة من يلتزم التزاماً دقيقاً
بأوامر الله ونواهيه .

الغيرة :

ويتناول "ابن القيم " الغيرة(١) كأحد المتغيرات النفســية التىتعتــبر

---

(١) مدارك السالكين. جـ (٣) ص ص (٤٣ / ٥١) .

ذات أهميـــــة فيما يكون عليه الإنسان من السلوك السوى السليم الـــذى يرضى عنه الله سبحانه وتعـالى لذلك اعتبرها منزلة شـــريفة ، وعظيمـــة جداً وأنها جليلة المقدار ويعتمد فى تحديدها على مفهوم "صاحب المنازل"[١] الذى يرى أن الغيرة "تعنى سقوط الاحتمال ضناً والضيق عن الصبر نفاســة" وهو يعنى عجز الغيور عن احتمال ما يشغله عن محبوبه ويحجبه عنه ضناً به .أى بخلاً. ويشير فى الشق الثانى إلى ضيق الإنسان بالصبر عن محبوبـه ذلك لأنه يغالى فى حبه لمحبوبه ، حتى أنه ينافس من أجل الحصول عليـــه رغبة فيه ، ولهذا فهو شديد الاجتهاد والحرص لذلك .

هذا؛ ويتناول "ابن القيم " الحديث عن أنواع الغيرة :

(أ) غيرة العبد من نفسه على نفسه ؛ كغيرته من نفسه على قلبه ، ومـــن تفرقته على جمعيته ،ومن إعراضــه علـــى إقبالـــه ، ومـــن صفاتـــه المذمومة على صفاته الممدوحة . وهذه هى خاصية النفس الشـــريفة الذكية العلوية . وليس للنفس الدنيئة المهينة فيها نصيب . ويرى أنـــه على قدر شرف النفس وعلو همتها تكون هذه الغيرة .

(ب) غيرة الحق تعالى على عبده .أى أن الله ســبحانه وتعالى قـــد حـــرر عبده فلا يجعله للخلق عبدا ولهذا اتخذه لنفسه عبدا .

(ج) غيرة العبد لربه لا عليه : فلا يجعل له فيه شركاء . أى لايجعـــل شـــيئاً من أعماله ، وأقواله ، وأحواله ، وأوقاته ، وأنفاسه لغير ربه ، وأنـــه يغضب إذا كان لغير الله .

---

(١) أبو اسماعيل الهروى ص (٧٢) .

ومن هذا يبدو واضحاً أن "ابـــن القيـــم " يتنـــاول مفهـــــوم الغـــيرة فى الإسلام دون الحديث عن مفهوم الغـــيرة كمـــا يتحـــدث عنـــها علمـــاء النفس المعاصرين ؛ وهى الغيرة المدمرة للإنســـان ولغـــيره مـــن النـــاس. والغيرة فى الإسلام تتجه إلى محاولة الإنســـان لأن يكـــون علـــى أفضـــل مستوى من العلاقـــة بينـــه وبيـــن خالقـــه ، وبذلـــك يحســـن ســـلوكه ، ويصدق فى كل ما يصـــدر عنـــه مـــن أقـــوال وأعمـــال وأفعـــال . وهنـــا يصبح العبد المؤمن يغار على نفسه مـــن الذلـــل والخطـــأ ، وعلـــى دينـــه مـــن النقصـــان ، وعلـــى إخوانـــه فـــى الإســـلام . الأمـــر الـــذى يرقـــى بالمجتمع الإسلامى أفـــرادا وجماعـــات .

الرضا :

ويتناول "ابن القيم "[١] هذا العـــامل النفسى كأحد المتغيرات النفســـية التى تشكل أهمية فى حياة الإنسان إذا رضيت النفـــس بمـــا حصـــل لـــها . ويحدده " ابن القيم " بأنه " رجوع النفس إلى ربها . حيث لاترجع النفس إلا إذا كانت راضية بما نالته فيحصل لها الرضا ". أى أن الفرد يكون شـــاعراً بالرضا حال استواء حالته من الغنى والفقر ، والراحة والتعب ، والعافيـــة والسقم، والاستيطان ومفارقة الأوطان . ذلك لأنه مدام قد حدث هـــذا فإنـــه يعتبر مراد الرب . فعلى الإنسان ألا يسخط على وضعه ، وألا يطلـــب غـــير تلك الحالة التى أقامه الله فيها . أى رضا العبد باختيار الله له ، عن رضـــاه باختياره لنفسه .

---

(١) مدارج السالكين جـ (٢) ص ص (١٧١ : ١٩٢).

وقد قام "ابن القيم " بعرض عدد من المفاهيم التى تحدد هذا المتغير النفسى منها ؛ عدم الاعتراض والسخط على حكم صدر على العبد . وسكون القلب إلى اختيار الله للعبد، والإعتقاد بأن هذا الاختيار هو الأفضل. ومنها - أيضاً - ارتفاع الجزع فىأى حكم كان .واستقبال الأحكام بالفرح . كما يذكر رأى "يحيى بن معاذ " أن الرضا يكون على أربعة أصول فيما يعامل به العبد ربه وهى؛ "إن أعطيتنى قبلت ، وإن منعتنى رضيت ،وإن تركتنى عبدت ، وإن دعوتنى أجبت ". ويشير كذلك إلى تعريف "صاحب المنازل "[1] وهو " الوقوف الصادق " والذى يراد به الوقوف مع مراد الرب تبارك وتعالى من غير تردد فى ذلك ولا معارضة .

هذا؛ ويشير "ابن القيم " إلى أن " الرضا " كان موضع إهتمام علماء المسلمين.حيث أخذوا يبحثون عن حقيقة تكوينه ؛ أهو مكتسب ؟ .. أو خلقى طبيعى فى التكوين الإنسانى .

كما تناول "ابن القيم " الحديث عن الآثار المترتبة على الإحساس بالرضا. حيث اعتبره ليس نهاية المطاف إنما هو دافع لمزيد من الأعمال والأفعال التى من شأنها أن تحقق استمرارية الإحساس بالرضا .وهوبذلك يؤكد على أن الرضا وسيلة الإنسان لتحقيق الأمن والاطمئنان ، وأن به تهدأ النفس ، ويطمئن القلب . ويعم إحساس الإنسان بالسرور . وهو يعتمد فى ذلك على مدى عمق الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، وإلتزام الإنسان المسلم بعقيدته حق الالتزام . فإذا تم ذلك تحققت له حالة الأمن والاطمئنان

---

(١) أبو اسماعيل الهروى ص (٣٩) .

التى تمكنه من مواصلة الحياة بصورة إيجابية .

الثقة :

يعرض "ابن القيم " فى مؤلفه كتاب الأرواح[١] إلى الحديث عن أحـد العوامل النفسية وهو الثقة التى اعتبرها علماء النفس المحدثون من أهـم المتغيرات النفسية التى تسهم فى بناء الشخصية السوية . عندمـا تناولـها بالتعريف فقال :" سكون يستند إلى أدلة ، وأمارات يسكن إليها القلب . كلما قويت تلك الأمارات قويت الثقة واستحكمت ، ولا سيما على كثرة التجـارب . وصدق الفراسة " .

ومن هذا التعريف الذى ذكره "ابن القيـم " يتضـح أن الثقـة لـدى الإنسان تتولد بناء على إدراكات لديه تعضد مقدار تقييمه لذاته التى إذا مـا كان لديها مقدار كبيرمن الثقة سكن قلب صاحبها وشعر بالهدوء والإستقرار حيال كثير من مواقف الحياة ونوائبها . كما أن لهذه الثقـة أسـباباً، فـى مقدمتها كثرة تجارب الإنسان ، وما يكتسبه منها من خبرات تدل على مـدى قوة ثقة الإنسان بنفسه . بالإضافة إلى مدى مالديه مـن مقـدار الفراسـة وصدقها التى تجعله أكثر إدراكاً لمدى هذه الثقة وقوتها .

الفراسة :

تناول "ابن القيم "[٢] هذا العامل بالدراسة والبحث على أسـاس أنـه

(١) كتاب الأرواح ط (٤) ص (٤١٧).

(٢) مدارج السالكين جـ (٢) ص ص (٤٨٢ : ٤٩٥).

سمة أساسية من سمات المؤمن التى تميزه عن غيره من عباد الله ، ولـهذا فقد سعى إلى معرفة وجهات نظر كثير من علماء المسلمين فى هذا العـامل فأورد المسميات التى سميت بها الفراسة . حيث أشار إلى أن " ابن عبـاس" أطلق على أصحاب الفراسة بأنهم الناظرون على حيـن سـماهم " قتـادة " المعتبرين ، بينما أطلق عليهم " مقاتل " المتفكرين .

ويذكر لنا " ابن القيم " وجـهات نظـر بعـض علمـاء المسـلمين الذين تناولوا عامل الفراسـة بالبحـث والتعريـف ، ومـن بيـن هـؤلاء " أبوسعيد الخراز " الذى يرى أن صـاحب الفراسـة قـد أنعـم الله بـها عليه لعدم غفلته عن الحق عندما قال :"مـن نظـر بنـور الفراسـة نظـر بنور الـحق ، وتكـون مـواد علمـه مـع الحـق بـلا سـهو ، ولا غفلة . بل حكـم حـق جـرى علـى لسـان عبـده . ويشـير إلـى رأى "الواسطى " الذى يرى أن الفراسة أنوار تلمـع فـى القلـوب تمـد العبـد المؤمن بمعرفة السرائر وأن هذه المعرفة أمـد الله بـها عبـده المؤمـن فيكشف عن طريقها ضمير غـيره مـن النـاس . عندمـا قـال :" إنـها شعاع أنوار لمعت فـى القلـوب ، تمكـن معرفـة جملـة السـرائر فـى الغيوب من غيب إلى غيب ، حتـى يشـهد الأشـياء مـن حيـث أشـهده الحق إياها ؛ فيتكلم عـن ضمـير الخلـق". بينمـا يعتـبر" الوراقـى " أن الفراسة هى " مكاشفة النفـس ومعاينـة الغيـب، وهـى مـن مقومـات الإيمان " كما عرفها "ابوجعفر الحداد" بأنـها " أول خـاطر بـلا معـارض فإن عارضه آخر من جنسه ؛ فهو خـاطر أو حديـث نفـس" .

ويبلور "ابن القيم " وجهات نظـــر مـــا قبلـــه فـــى تحديـــد مفـــهوم الفراسة بأنها نعمة من الله توهب للعبـــد المؤمـــن فتنظـــر علـــى معـــانى الغيب ، فتنطق بأسرار الخلـــق عندمـــا قـــال :" هـــى أرواح تتقلـــب فـــى الملكوت ؛ فتشرف علـــى معـــانى الغيـــب ؛ فتنطـــق عـــن الخلـــق نطـــق مشاهدة لا نطق ظن وحسبان مؤكـــداً أن صـــاحب الفراســـة يســـتطيع أن يدرك ويعرف المتكلم ، ويكمن ضمـــيره مـــن كلامـــه ، وأن ذلـــك أقـــرب من معرفته بسيماه ، وما فـــى وجهـــه. علـــى أســـاس أن دلالـــة الكـــلام على قصد قائله وضميره أظهر مـــن الســـمات المرئيـــه . كمـــا يشـــيرإلى أن الفراســـة تتعلـــق بمصدريـــن مـــن مصـــادر الإدراك الحســـى، وهمـــا النظر والسمع ,حيث يعتبران من أهـــم المصـــادر الحســـيه للفراســـة .

كما يسرد لنا "ابن القيم" وجهات نظر هـــؤلاء العلمـــاء فـــى أســـباب حصول العبد على الفراســـة وتمـــيزه بـــها دون غـــيره مـــن عبـــاد الله. فيذكر أن "عمرو بـــن نجيـــد"قـــد حـــدد أســـباب الفراســـة عـــن طريـــق ملاحظته أحد المحدثين بها وهو"شاه الكريانى" واصفـــاً إيـــاه بأنـــه كـــان حـــاد الفراســـة لا يخطـــئ . وأن ســـبب ذلـــك غـــض بصـــره عـــن المحـــارم،وأنـــه أمســـك نفســـه عـــن الشـــهوات،وعمـــر باطنـــه بالمراقبـــه،وظـــاهره باتبـــاع السنه ، وتعـــود أكـــل الحـــلال ، ولذلـــك لم تخطئ فراسته. واتفق "أبوعثمان الهروى" مـــع "عمروبـــن نجيـــد" فـــى صحة هذه الأسباب التى تؤدى إلـــى الفراســـة .

وتتحقق الفراسة الصادقة للمؤمـــن الـــذى اتسـم قلبـــه بالطـــهاره

والنقاء،والصفاء،ونزاهة قلبه عن ارتكاب الادناس . فضلاً عن السبب الأساسى وهو القرب من الله ،فإذا تحقق له ذلك،فإنه ينظر بنور الله.وصدق رسول الله ﷺ"اتقوا فراسة المؤمن فهو ينظر بنور الله".ويضاف إلى ما تقدم جودة ذهن المتفرس،وحسن فطنته،ولذلك تظهر للعبد الذى يتميز بالفراسة علامات وأدلة على قدرته على التفوس .

ويتلقى المتفرس معلوماته ويدرك بياناته عن طريق كل من عينيه ؛ حيث ينظر العلامات والسمات وأذنيه حيث يسمع الكلام وتصريحه ، وتعريضه ، ومفهومه ، وفحواه ، وإشاراته ، ولحنه ، وإيمانه . وقلبه . حيث يعبر عن طريقه من المنظور والمسموع إلى باطن المتحدث فيستدل على ما أخفاه فى داخله..

هذا ؛ وقد حدثنا التاريخ عن نماذج من الشخصيات الإسلامية البارزة التى اشتهرت بالفراسة فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى رأى سارية "بنهاوند" من أراضى فارس فناداه " ياسارية الجبل " . وهذا "عثمان بن عفان " يدخل عليه رجل من الصحابة وقد رأى امرأة فى الطريق فتأمل محاسنها فقال " عثمان "يدخل علىّ أحدكم وأثر الزنا فى عينيه .فيقال : "أوحى بعد رسول الله ﷺ فقال "عثمان":لا ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة .

ومما تقدم من عرض لمفهوم الفراسة ووجهات نظر العلماء فيها ، وبيان أسباب حصول العبد عليها ، ومعرفة مصادرها

الأساسية ، وكيف يمكـــن أن تحـدث عمليــة الفراســة ، وذكـر بعـض الأمثلة للمتفرسين الذين شـــهد لـــهم التـــاريخ بفراســـتهم ، فإنـــه يمكـن القول بأن الفراسة عملية نفسية إدراكية تتـــأتى للعبـد المؤمـــن الـــذى يقـترب مـــن الله بأقـــواله وأفعـــاله فتصفـــو نفســـه . ويتقـد ذهنـــه ، وتصان فطرته السليمة النقية ، وعند ذلـــك يقـذف الله ســـبحانه وتعـالى النور فى قلب المؤمن فيخطر له الحـــدث، أو الأمـــر ، أو الشـــىء وينفـذ إلى العين فترى مالا يراها غيرها ، فيكون كمـــا خطــر لـــه فـــى نفســـه ، وأدركه عقله ، وصدقه قلبـــه .

الانفعالات

الحزن :

كما يتناول "ابن قيم الجوزية" الحزن ببيان وجهات نظر الآخرين فـــى مفهومه؛ فيذكر رأى "أبى العباس" بأنه "انخلاع[١] عن الســـرور،وملازمـــة الكآبة لتأسف على ما فات "٠ وهو بذلك يعتبر أن الحــزن حالــة انفعاليـــة تنتاب الإنسان، وتؤثر فى القلب على ما يستقبل من الأحـــداث ٠ ويـــترتب عليه ضعف فى القلب، ووهن فى العزم، واضرار بالإرادة٠ ولذلك يعتـــبره "ابن القيم " حالة مرضية تصيب القلب وتمنعه من نهوضه وسيره ٠

كما أشار الى أن هذه الحالة الانفعالية التى تصيـــب الإنســـان فـــى حالتين : الأولى: لتقصير الإنسان فى عبوديته لله ٠ الثانية : تورطـــه فـــى مخالفة الله ، ومعصيته ، وضياع أيامه وأوقاته ٠٠٠ وهو فى الوقت نفســه -الحزن- فى هاتين الحالتين دليل على "صحة إيمـــان المؤمـــن "٠ هـــذا؛ ويشير إلى أن الحزن[٢] "موقف " غير مُسَيِّر ، ولا مصلحة فيه للقلب، وأنه أحب شى ء إلى الشيطان : لأنه " يقطعه عن سيره ، ويوقفه عـــن ســـلوكه "ولذلك اعتبره مصيبة من المصائب إذا حل بالإنسان ٠ ولهذا يـــرى "ابـــن القيم "أن الحزن ليس بمطلوب ، ولا مقصود ، ولا فائدة فيه ٠ ومـــن أجـــل هذا يجب أن يستعيذ منه الإنسان ٠ وقد يكـــون محنـــة وابتـــلاء مـــن الله

---

(١) طريق الهجرتين ص ص (٣٩٣ / ٤٩٥) .

(٢) مدارج السالكين جـ (١) ص (٥٠٦)

سبحانه وتعالى للعبد المؤمن ليتبين مدى قوة ايمانه ٠

ويصنفه "ابن القيم"[١] الى ثلاثة أنواع (أ) حزن أورثــه خــوف الانقطاع (ب) حزن يذهب سرور الذوق ؛ وهوحزن ظلم الجــهل (ج) حــزن يبعثه وحشة التفرق ؛ وهو تفرق القلب عن الله عز وجل ٠

ومما تقدم تتضح وجهة نظر"ابن القيم" فى الحزن كحالة نفسية تنتاب الإنسان؛ وهو يعرضها من وجهة نظرالإســلام ويــرى أن الحــزن لايفيــد الإنسان ، بل إنه إذا تملك منه يستفيد منه الشــيطان ليحــول بينــه وبيــن مسيرته الطبيعية السليمة، ليوقعه فى الخطأ ، ويجعله يحيد عن الطريــق القويم .لذلك يوصى الإسلام الإنسان المسلم من الاستعاذة منه، والحــرص على عدم الوقوع فيه ٠ كما يرى "ابن القيم" أن الإنسان يســتطيع الوقايــة منه إذا ما ظل قلبه وعقله مرتبطا ارتباطاً قوياً بالله ومنهجه ٠

الفــرح :

يتناول "ابن القيم"[٢] أحد العوامل النفسية التى يتسم بــها الإنســان وهو عامل الفرح الذى يعتبر بعداً انفعالياً مميزا للإنسان عــن غــيره مــن الكائنات الحية الأخرى٠ويبدأ حديثه عن هذا العامل بتعريفه. عندمــا قــال :"إنه لذة تقع فى القلب بإدراك المحبوب ،ونيل المشــتهى ؛ ويتولــد مــن ادراكه حالة تسمى بالفرح"٠ كما يعرفه بضده وهو الحزن حيث يذكــر" أن الفرح ضد الحزن "٠

---

(١) مدارج السالكين جـ (٣) ص ص (١٦١ / ١٦٤)

(٢) مدارج السالكين جـ (٣) ص ص (١٥٦ : ١٥٩)

وعندما نتأمل هذا التعريف يتضح أن الفرح من وجهة نظر"ابن القيم" إحساس يقع بالقلب عند إدراك الإنسان من يحب ، وتحقيق ما يصبو إليه من لقاء المحبوب . حيث يشعر بحالة انفعالية تجعله يدرك قدرا من الراحة والاستقرار النفسى . ويرى:ابن القيم: أن الفرح أعلىأنواع أحاسيس القلب حيث يُشعر الفرح "بالنعيم ولذته" .

ويذكر"ابن القيم" أن الفرح مرتبط بمدى رغبة ومحبة الإنسان لمحبوبه ، وذلك لأنه يعتبر فرح العبد بمن يحب دليلا على مدى تعظيمه ، ومحبته له ،وتفضيله وإيثاره على غيره. والعكس على خلاف هذا الأمر ، فإن من ليس له رغبة فى شىء ما أو إنسان ما فإن حصوله على هذا الشىء ، أو لقاءه لهذا الإنسان لا يؤثر على مشاعره وأحاسيسه. كما أنه لا يحزن لفواته أو عدم الالتقاء به. إن كان إنساناً .

هذا ؛ ويرى "ابن القيم" أن هذه الحالة الانفعالية "الفرح" التى تنتاب الإنسان حين لقاء المحبوب أو حدوث ماكان يتمنى أن يحدث - يعتبر أعلى درجة من درجات الاستقرار النفسى - حيث اعتبر أن الفرح أعلى درجة من الرضا على أساس "أن الرضا طمأنينة وسكون وانشراح وأن الفرح لذة وبهجة وسرور ".

وفى تناول "ابن القيم " لهذا العامل - الفرح - يربطه بالجانب الدينى؛ وهو الجانب الهام الذى يشكل ضرورة أساسية فى حياة الإنسان لتحقيق أكبر قدر ممكن من السواء النفسى . والذى يبدو أكثر وضوحا فى مدىعلاقة الإنسان بخالقه . حيث لا يستطيع الإنسان أن يدرك ويحقق

مستوى أفضل من الصحة النفسية إلا إذا كانت علاقته بخالقه تسير وفق أوامره ونواهيه .

السرور :

من يتتبع أفكار "ابن القيم "[١] فى محاولته لبيان الفرق بين الكثير من العوامل النفسية ذات الارتباط بالجانب الانفعالى يجد أنه قد اعتبر "السرور"أحد هذه العوامل الهامة التى يتميز بها الإنسان . وإن بدا أنه ليس هناك فرق بين السرور والفرح . إلا أنه إذا دققنا النظر فيما أورده "ابن القيم" عند حديثه عنهما يتضح أن السرور مستوى من الحالة الانفعالية التى تغمر الإنسان بهذا الإحساس دون أن يشوبه حزن أو كدر . ولذا يختلف عن مستوى الفرح .

وقد سمى "السرور" بهذا الاسم لبيان أثره على أسارير وجه الإنسان وقد تناوله "صاحب المنازل" [٢] بالحديث وبيان معناه فقد رأى أنه "اسم لاستبشار جامع ويعتبره أصفى من الفرح على اعتبار أن الأفراح ربما شابها الأحزان" . إلا إننا نجد أن "ابن القيم" يرى أن الفرح أعلى من السرور أى أن معناه أكمل من معنى السرور .

ومن هذا ندرك أن علماء المسلمين قد تنبهوا لكثير من العوامل النفسية التى تنتاب الإنسان من حين إلى آخر تبعا لتغير ظروف الحياة وأحداثها ومواقفها، وتبعا لمدى عمق إيمانه وزيادته

---

(٢)مدارج السالكين جـ (٣) ص ص (١٥٩ : ١٦٩)

(٢) منازل السائرين ص (٨٤)

أونقصانه . ولهذا كان تناولهم لكل من الفـــرح و الســـرور علـــى أســـاس أنهما عاملان نفسيان يختلف مستوى كل منـــهما عـــن الآخـــر.

الشـوق :

ويتناوله "ابن القيم" [1]الشوق كحالة انفعالية ، وأثر من آثار المحبـــة وحكم من أحكامها . ويشير إلى عدد من التعريفات الخاصة بهذا الانفعـــال ؛ فيذكر قول "يحيى بن معاذ" الذى يرى أن الشوق هو "فطام الجـــوارح عـــن الشهوات " وقول "صاحب المنازل "[2] الذى يعـــتبره "هبوب القلـــب علـــى غائب .. لحدوث الراحة " ويعلق "ابن القيم "على هذا بأن الشوق مظـــهر إنسانى يدفع الإنسان إلى حدوث الراحة وتحقيق العافية للإنسان . ويضيـــف إلى قول " صاحب المنازل " ما يلى: ارتياح القلوب بالوجد ، ومحبة اللقـــاء فى القرب "وهذا يعنى أن حالة الشوق وإن كانت من أهم مظاهرها الإحساس بالقلق والاضطراب على المحبوب ، وبيان الرغبـــة فـــى لقائـــه إلا أنـــها أحاسيس تخفض لهيب الفراق بين المحب والمحبوب أملاً فى لقائـــه الـــذى بدوره يزيل القلق والاضطراب النفسى عند إطفـــاء اللـــهيب الناشـــئ عـــن أحاسيس المحبين بالمسافات السيكولوجية بينـهم وبين من يحبون . حيث إن الشوق يسكن باللقاء . بينما يشير الاشتياق إلى عدم إزالته بحدوث اللقـــاء بين المحبين .

كما يذكر "ابن القيم" إن من أهم مظاهر الشـــوق التـــى تبـــدو علـــى

---

(١) مدارج السالكين جـ (١) ص ص (٥٢ : ٦٠)

(٢) أبو اسماعيل الهروى ص (٧٣)

المحبين ؛ سفر قلوبهم إلى المحبوب فى كل حال ، ورغبة القلوب وحاجتها إلى لقاء المحبوب ، وهبوب القلب إلى لقاء الغائب بصفة دائمة ومستمرة . ويشير إلى أن الشوق أقل من المحبة لأنه يتولد عنها ، وأن مدى قوة الشوق تتوقف على مدى قدر المحبة ووضعها لدى المحب .

وحديث"ابن القيم" عن الشوق كأحد الحالات الانفعالية التى تميز الإنسان عن غيره من الكائنات الحية ينصب على شوق المؤمن إلى لقاء خالقه . أى أنه يتناوله من وجهة نظر الإسلام من خلال بيان ما ينبغى أن تكون عليه طبيعة العلاقة بين الإنسان المسلم الحق وبين خالقه سبحانه وتعالى .

الخشوع :

ومن يقرأ "لابن القيم"[١] فى عديد من مؤلفاته يتضح أنه قد تناول كثيرا من العوامل النفسية التى تميز الإنسان عن غيره من مخلوقات الله ؛ومن بين هذه العوامل الخشوع ، فيتناوله بعرض المفهوم اللغوى لهذا العامل ؛ فيذكر أن " الخشوع يعنى فى اللغة الانخفاض والذل والسكون " ثم يذكر بعد ذلك المعنى الاصطلاحى فيقول : "الخشوع هو قيام القلب بين يدى الرب بالخضوع والذل". ويؤكد على أن محل الخشوع قلب الإنسان وأن آثاره وعلاماته تظهر على جوارحه . أى أنه إذا خشع الإنسان لربه بدا ذلك فى كل ما يصدر عنه من تصرفات وأفعال تنبئ عما يكنه قلبه

---

(١) مدارج السالكين جـ (١) ص ص (٥٢٠ : ٥٢٢)

من هذا الخشوع والتذلل لـــرب العـــالمين .

ومن هذا يبدو أن الخشوع حالة انفعالية تنتاب الإنسان ، وتظهر عليه حال وقوفه فى موقف أمـــام من كشـــف باطـــنه ، وعـــرف خبـــايـــاه، فـــتراه منضبط النفس أمامه ، ويظهر ذلك كله فيما يصدره الإنسان مـــن علامات الخضوع والانكسار والذلة .

وعندما يتناول " ابن القيم " هذا العامل بالشرح والتوضيح ، فإنـــــه يدلل عليه ويثبت وجوده عن طريق علاقة العبد بخالقه ؛ فيذكر أنه عبـــارة عن " قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل ...". وقد أشار إليه كثـــير من علماء المسلمين فقد عرف " الجنيد " الخشوع بأنه " تذلل القلوب لعـــلام الغيوب "، وعرفه غيره بأنه " الانقياد للحق ". ويعلـــق عليه "ابن القيـــم " بأن هذا الانقـــياد من موجبـــات الخشـــوع . كما يذكـــر تنـــاول " صـــاحب المنـــازل "[١] لهذا المفهوم الذى قال فيه بأنه " خمود فى النفـــس ، وهمـــود الطباع لمتعاظم، أو مفزع ".

ويتضح مما تقدم أن الخشوع الذى يكمن فى قلب العبد سببه الجمـــع بين التعظيم والمحبة والذل والانكسار ، ويتمثل كل ذلك فـــى انقيـــاد العبـــد لخالقه عز وجل مع اظهار الضعف وهذا عن طريق طاعة أوامره ، واجتناب نواهيه ظاهره وباطنه . ولا يتحقق ذلك الا بامتلاء القلب بأكبر قـــدر مـــن التعظيم والمحبة للواحد القهار . وإنه كلما كـــان الإنســـان المســـلم أشـــد استحضاراً للخوف من الله كان أشد خشوعاً ، ويبدو ذلك فى كل ما يصـــدر

---

(١) أبو اسماعيل الهروى ص (٢١)

عنه من أقوال وأفعال وأعمال حال عبادة الله عز وجل ، وحال تعامله مـــع عباد الله.

ويعد هذا العامل النفسى الذى يميز الإنسان عن غيره من المخلوقـات اضافة جديدة لكثير من العوامل ذات الإرتباط بالجـانب الانفعـالى. حيـث يلاحظ أن هذا العامل لم يكن موضع اهتمام علماء النفـس المحدثيـن فـى دراستهم النظرية أو بحوثهم التجريبية .

الوجـل :

ويضيف " ابن القيم " إلى العوامل الانفعالية عاملا آخر هـو عـامل "الوجل "(١) الذى يعرفه بأنه "رجفان القلب ، وانصداعه لذكر مـن يخـاف سلطانه وعقوبته أو لرؤيته ". ويشير هذا التعريف إلى إدراك "ابن القيـم " لكثير من الحالات الانفعالية التى تنتاب الإنسان فى مختلف مواقـف حياتـه وخاصة عند حديثه عن علاقة الإنسان المؤمن بخالقه سـبحانه وتعـالى . حيث يذكر أن الإنسان المؤمن تنتابه حالة الوجل التى تبدو أكثر ما تبدو فى اضطراب القلب ورجفانه حال ذكر أو رؤية من له سلطان عليه ، ومن لـه تأثير بالغ الشدة على مستقبله . ومن أجل ذلك فإن العبد المؤمن الذى يعلـم علم اليقين أن ناصيته ، ومآله فى الآخرة بيد خالقه الواحد الأحد يكون أشـد إظهاراً لحالة الوجل من غيره من العباد حال سماع أو ذكر سلطان خالقه .

الإشفاق :(٢)

وهو حالة انفعالية تحدث للإنسان فى مواقف معينة يشعر فيها بدرجة

---

(١) مدارك السالكين جـ (١) ص (٥١٣)

(٢) مدارك السالكين جـ (١) ص (٥١٨/٥١٩)

من الخوف على من يخاف عليه. لذلك فقد عرفه "ابن القيم " بأنـــه "رقـــة الخوف ؛ وهو خوف مشوب برحمة من الخائف لمن يخاف عليه " . وهـــذا يعنى أن الإشفاق هو خوف مقرون بقدر من الرحمة ؛ كخوف الإنسان علـــى عمله يوم الحساب ، أو من ضياعه من ارتكاب المعاصى .

الحياء :

والمتتبع لاهتمامات "ابن القيم " فى مؤلفاته ؛ وخاصة كتاب " مـــدارج السالكين " يجد أنه قد كتب عن حالة انفعالية أخرى يتميز بها الإنسان عـــن غيره من مخلوقات الله . فيذكر أن الحياء"[1] حالة انفعاليـــــة يتســـم بـــها الأشراف من الناس ، والكرماء منهم ". وأن هذا الحياء يبدو أكثر ما يبـــدو عند الإنسان حال إدراك العبد أن الله بصير بالعباد ، ولذلك يستدل عليه مـــن مراقبه الله ، وحضـــور القلب مع خالقـــه ســـبحانه وتعالى ، والخوف أينما كان . ولهـــذا اعـــتبر أن الخوف وازعه ؛ لأن المســـتحى مـــراع جـــانبى ربه، وملاحظه عظمته .

الخوف :

تناول "ابن القيم "[2] الخوف بالدراسة والبحث حيث يتعرض لوجـــهات نظر علماء المسلمين فى هذا المفهـــوم ؛ فيذكـــر "صاحب[3] المنازل" بأنـــه "الانخلاع من طمأنينة الأمن لمطاعة الخبر " . ويعلق على ذلك موضحـــا أن

---

(١)مدارك السالكين جـ (٢) ص (١٦٥)

(٢)مدارج السالكين جـ (١) ص ص (٥١٣ : ٥١٥)

(٣) أبو اسماعيل الهروى ص (٢٠)

الخوف سكون الأمن باستحضار ماأخبره الله به من الوعد والوعيد . وهـو بذلك يعنى أن الخوف حالة انفعالية تحدث للإنسان علىأساس العلم بشى ء ما يحدث شعوراً بالخوف . ويشير إلى تعريف "ابن[١] العباس " الذى يـرى أن الخوف "انخلاع عن طمأنينة الأمن ، والتيقظ لنداء الوعيد ، والحذر مـن سطوة العقاب " ولذلك يرى أنه يوجب القبض واليقظة والحذر. كما يعتـبره شرطاً من شروط الإيمان بالله الواحد الأحد.

و يذكر "ابن القيم" أن الخوف عبارة عن توقع العقوبة على مجـارى الأنفاس وأنه يبدو أكثر وضوحاً فى حركة من يرى العدو أو السيل فيـأتى بسلوك الهرب دليلا على شدة الخوف . كما أنه يبدو فى حركـة اضطـراب القلب حالة تذكر مصدر الخوف أو إدراك سببه . حيث إن حركة إضطـراب القلب تعنى استشعاره بحلول مكروه أو ضرر . الأمر الذى يدفـع الإنسـان إلىالهروب خوفاً من وقوعه . وهذا يشير إلى أن الخوف مسبوق بالشـعور والعلم . ولذلك يرى "ابن القيم " أن الخوف ليس مقصوداً لذاتـه بـل إنـه مقصود لغيره . أى أنه وسيلة تعين الإنسان على تفادى وقـوع خطـر أو مكـروه أو ضـرر عليه ولذلـك فإنه يـزول بزوال سـبب الخـوف أو مصدره .

ويشير "ابن القيم " إلى وجود علاقة بين "الخوف"[٢] وكل من "الوجـل" ، و " الخشية " ، و "الرهبه" ، و " الهيبة" . ويرى أنها ألفـاظ تعـبر عـن

---

(١) طريق الهجرتين ص ص (٣٩٨ : ٤١٦)

(٢) مدارج السالكين جـ (٣) ص ص (٥١١ : ٥١٣)

انفعالات متقاربة ، إلا أنها ليست مترادفة ، وخاصـــة "الهيبـة " . هـذا؛ ويعتبر "ابن القيم" أن الخوف وسيلة للحفاظ على صحة القلب بنـــاء علـى وجهةنظر أحد العلماء المسلمين -"أبو سليمان"- الذى يرى أن، مـــن أهـم وظائف الخوف فى حياة الإنسان الحفاظ على صحة وسلامة القلـب عندمـا ذكر "أنه إذا ما فارق الخوف قلباً إلا خرب "، وهذا ما أكده كل مـن "أبـى سفيان " فى قوله:" إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشبهات منـها ، وطرد الدنيا عنها " و " "ذى النون " الذى يرى :" أن الناس على الطـريق مالم يزل عنهم الخوف ، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق ".

ويرى أن الخوف المحمود هو الذى يحول بين صاحبه وبين محـارم الله عز وجل وإذا تجاوز ذلك قد يؤدى إلى حالة من اليأس والقنوط . ويشير إلى قول " أبى عثمان " الذى يحدد مظاهر الخوف المحمود " صدق الخـوف هو الورع عن الآثام ظاهرًا وباطناً" ويذكر أن الخـوف متعلـق بـالمكروه المحذور وقوعه ، والسبب والطريق المفضى إليه . ولذلك يختلـف مقـدار الخوف باختلاف إدراك الإنسان وشعوره بالسبب الذي يخيفه ،وكذلك بقـدر المخوف يكون خوف الإنسان .

ومما تقدم يتضح أن "ابن القيم" قد اهتـم بـالخوف كـأحد العوامـل النفسية التى تشكل أهمية فى حياة الإنسان وآخرته، ولذلك نجده قد حـاول بيان مفهومه وإثبات وجوده ، من خلال وجهات نظـر علمـاء الإسـلام ، مضيفا إلى ذلك وجهة نظره الشخصية فى هذا العامل . كما بين أهميته فـى استمرارية حياة الإنسان بشكل سوى سليم ، وضرورته كأساس يعتمد عليـه الإنسان المؤمن للتطلع إلى حياة أفضل فى الآخرة . فضلاً عـن محاولاتـه

تحديد وظيفة الخوف الأساسية فى حياة الإنسان مدعما وجهة نظـره فيمـا يرى من أهمية الخوف وضرورته ومايقوم به من وظائف أساسـية تحمـى حياة الإنسان المؤمن معتمدا فى ذلك على آراء من سبقوه فى تنـاول هـذا العامل بالدراسة والبحث .

الخشية :

ويبين "ابن[١] القيم" هذه الحالة الانفعالية التى تنتاب الإنسان المسـلم عن طريق بيان الفرق بينها وبين "الخوف" . حيث يشير الـى أن الخشـية حالة انفعالية أخص من الخوف ، وأنها تنتاب العلماء أكثر من العامة لأنـهم أكثر معرفة بالله الواحد الأحد . وعرفها "ابن القيم" بأنـها حالـة "سـكون وقراره"..كما أنها عبارة عن خوف مقرون بمعرفة ولذلك نلاحظ أنها أكـثر التصاقا بالعلماء العارفين .

ولهذا نجد أن "الخشية" التى تبدو علـى صاحبـها يكـون مصدرهـا معرفة العبد بكثير من المعلومـات عـن خالقـه تبـارك وتعـالى؛ هـذه المعرفة تجعل صاحبها فى حالة الخشية التى تتضح فـى كـل مـا يصـدر عنه مـن تصرفـات حـال إقبالـه علـى خالقـه ،وتعاملـه بـأوامره ، وامتناعه عن نواهيه. وبصورة عامة حال تعامله مـع غـيره مـن عبـاد الله .

ويرى "ابن القيم" أن الخشية التـى تنتـاب العبـد المؤمـن تحصـل وتتم بالعلم والمعرفة ،ولايمكـن أن تنتـاب الإنسـان هـذه الحالـة إلا إذا

---

(١) مدارج السالكين جـ (١) ص (٥١٣).

كان على دراية وخبرة ومعرفة بالطرف الآخـر الـذى يخشـاه . ولذلـك قيل فى الفرق بين الخـوف والخشـية ؛ بـأن الخـوف حركـة انفعاليـة تبدو فيما يصدر عن الإنسـان مـن سـلوك حـال رؤيـة شـىء يدعـو للهرب منه . بينما تكـون الخشـية حـالة انفعاليـة خاصـة تنتـاب العـبد المؤمـن فى كثـير من المواقـف الحياتيـة فتجعلـه فـى حالـة من "انجماع وانقباض وسكون" وتدفعـه: لأن يسـلك سـلوكاً معـيناً ومحـدوداً وخاصـاً ، يتعجـب منه العامة من النـاس حالـة حدوثـه .

وهذا العامل -أيضـا- يعتـبر إضافـة جديـدة يضيفـها العلمـاء المسلمون إلى بقيـة العوامـل ذات الارتبـاط بالجـانب الانفعـالى لـدى الإنسان . كما أنه يبين مـدى اهتمـام هـؤلاء العلمـاء بالإنسـان ومـا يصدر عنه من أقوال وأفعـال وأعمـال تشـير إلـى ارتباطـه بالجـانب الدينـى .

الهيبة :

ويضيف "ابن القيم" حالة انفعالية أخرى إلى جانب الحالات الانفعاليـة التى تنتاب الإنسان فى حياتة ؛ وهى الهـيبة التى يعرفهـا بأنها[1]: "خوف مقارن للتعظيم والإجـلال ، وأكثـر ما تكون مـع المحبـة ،والمعرفـة ، والإجلال ". أى أن الهيبة عبارة عن إحساس بالخوف مقرون بالحب بنـاء على مقدار معرفة الإنسان وتعظيمه وإجلالة لمن يهابة .

---

(١) مدارج السالكين جـ (١) ص (٥١٣)

ويرى : " ابن القيم" أن تلك الحالـــة الانفعاليـــة - الهيبـــة- تبـــدو أكثر ما تبدو فى حالـــة مناجـــاة العبـــد لربـــه ، وتضرعـــه بيـــن يديـــه ، واستعطافه، والثنـــاء عليـــه بآلائـــه، وأســـمائه ، وأوصافـــه . ويتوقـــف مقدار الهيبة على مـــدى إدراك العبـــد لله، فكلمـــا أدرك العبـــد جلالـــه ، وعظمته وقدرة خالقة كان مقدار هيبته. وقد صنفـــها تحـــت اسـم "هيبـــة الجـــلال" .

ومن هذا يتضح أن "ابن القيـــم" قـــد رصـــد حالـــة انفعاليـــة للعبـــد المسلم تنتابه حالة معرفة وتعظيم وإجـــلال لشـــخصية معينـــة لـــها مـــن الهيبة والاحترام والتقدير والإجلال فى نفسه مـــا يدعـــو إلـــى الإحســـاس بهذا الانفعال حال الوقوف أو الحديث معه . وإن كـــان "ابـــن القيـــم" قـــد أوضح هذه الحالة على العبد المؤمن ومـــن وجهـــة نظـــره التـــى تعتمـــد أساسا على المفهوم الإسلامى حـــال إدراك هـــذا العبـــد لخالقـــه الواحـــد الأحد .

هذا، وقد فرق "ابن القيم" بين ثـــلاث حـــالات مـــن الإنفعـــال التـــى ذكرها وهى "الخوف" الذى يعتبره حالـــة انفعاليـــة لعامـــة المؤمنيـــن وأن "الخشية" للعلماء والعارفين، وأن "الهيبـــة" للمحبيـــن .

الدوافـع

وقد ذكر "ابن القيم" عددا من العوامل النفسية التى يمكــن تصنيفــها تحت الدوافع ؛ ومن هذه العوامل "الرهبة"[١] : التى يعرفها بأنها "الإمعــان فى الهرب من المكروه " .وهذا يعنى أن الرهبة عامل نفسى يدفع الفرد إلـى سلوك الهرب مما قد يصيبه من أذى أو مكروه يتوقع حدوثــه .ويـرى أن الرهبة تعتبر عاملا يمثل الضد لعامل آخر وهو "الرغبة"[٢] التى عرفها بأنها "سفر القلب فى طلب المرغوب فيه ". أى أن الرغبة عامل نفسى يدفع الفرد حالة حدوثها إلى أن يسعى بكل ما يملك من وسائل وأساليب سالكا مختلـف أنواع الدروب بهدف تحقيق رغبته .

هذا ؛ ويستمر "ابن القيم" فى توضيح مفهوم الرغبـة ، وذلـك عـن طريق بيان الفرق بينها وبين عامل نفسى آخر وهو الرجاء :-حيث يشـير إلى أن الرجاء يتمثل فيما يظهر من الإنسان من أنماط السلوك التـى تعلـن عن طمعه . بينما تبدو الرغبه فيما يصدر عن الإنسان من أنواع السـلوك التى تعلن عن طلبه .

ولذلك نجد أن "ابن القيم" يؤكـد علـى أن الرغبـه كدافـع نفسـى تختلف عن الرجاء . وهو يعتمـد فـى بيـان ذلـك علـى مـاورد عنـد "صاحب[٣] المنازل " من أن الرغبة حالة نفسـية تنتـاب الفـرد وتدفعـه

---

(١)مدارج السالكين جـ (١) ص (٥١٢)

(٢)مدارج السالكين جـ (٥) ص (٥٦/٥٥)

(٣) أبو اسماعيل الهروى ص (٢٧)

لإصدار أنماط من السلوك تعلن طلب مــــراده وتحقيــق رغبتــه . ولذلــك فانه يرى أن الرغبه تاليه لحاله الرجــاء وتتولــد عنــها .ولــهذا نلاحــظ أن الذى تنتابه الرغبه يسلك سلوك من يســعى لتحقيــق طلبــه .

ومن هذا يفهم أن "ابن القيم" قد اهتــم ببعــض العوامــل النفســية التى تكمن وراء كثير من أنماط السلوك التى تصــدر عــن الإنســان فــى مختلف مواقف حياتــه . الأمــر الــذى جعلــه يعتــبر أن الرهبــة حالــة نفسية تدفع الإنسان إلى أن يصدر سلوكا يعلــن عــن هروبــه ممــا قــد يحدث ويلحق به الضرر ، وأن الرجاء حالة ثانيـــة تدفــع الإنســان الــى إصدار أنواع من السلوك يشير إلى طمعه بينمــا تدفــع الرغبــة صاحبــها لأن يأتى بالأفعال التى تمكنه من تحقيق طلبــه وإشــباع رغبتــه .

مجالات نفسية أخرى

التفسير :

ومن يتتبع كتابات " ابن[١] القيم " يجد أنه قد تعرض لعملية تفسير الأحلام ،حيث يرى أن ظهور الثياب فى المنام يشير إلى القلب عندما ذكر "تدل ثياب المرء فى المنام على قلبه ". ويؤكد صحة تفسيره لذلك بأن الله سبحانه وتعالى قد نهى عن لباس الحرير ... لما له من تأثير فى القلب وعلى هيئة الإنسان التى تتنافى مع إحساسه بالعبودية والخشوع لله .

ويذكر لنا موقف أهل البصائر من هذا الأمر .عندما قال : "كما أن أهل البصائر يدركون تأثير الثياب على القلب والنفس ويعرفون دلالته على نوعيتهما؛ نظافتها ودنسها، ورائحتها ، وبهجتها تدل على قلب صاحبها ... حتى أنهم يدركون ، ويعرفون الإنسان الخير من الشرير ، والبر من الفاجر من ثوبه" .

العلاج النفسى :

كان لموضع العلاج النفسى عند " ابن القيم " اهتمام شديد ، حيث تناوله بشئ من التوضيح والتفصيل وعرض لكثير من الحالات النفسية التى قد تنتاب الإنسان فى حياته ؛ فقد تحدَّث عن كيفية التغلب على حالات الوسوسة[٢] التى عرفها بأنها "محاولة الشيطان مع الإنسان لأن يكذب بالحق "،ويرى أن الإنسان إذا ما أصابته هذه الحالة فإنه يجب عليه

---

(١) مدارج السالكين جـ (١) ص (٢١)

(٢) زاد الميعاد جـ (٢) ص (٣٥)

الإستعاذة بالله والاستغفار ، والتفل عن اليسار ثلاثاً وأن يقرأ الإنسان قـــول الله تعالى[١] :" هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليـــم " أو أن يقرأ[٢] " وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هـــو الســميع العليم"[٣] .

كما تناول كذلك حالة الغضب[٤] إلتىتنتاب الإنسان فـــى كثـير مــن مواقف حياته ،وبين كيفية التغلب عليها ؛ وقـــد أشـــار إلـــى أن الإنســـان يستطيع أن يطفئ جمرة غضبـــه بـــالوضوء ، والقعـــود إن كـــان قائمـــا ، والاضطجاع إن كان قاعداً والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم . هذا وقـــد أكد على أثر الصلاة والوقوف بين يدى الله فى عملية إزالة حالة الغضب.

وأشار "ابن القيم" إلى أن الإنسان كثيرا ما ينتابه حالات الكرب والـــهم والحزن والغم [٥] ، وبين كيفية التغلب على الحالات النفسية التى تصيـــب الإنسان من حين إلى آخر فى حياته ، حيث ذكر أنه إذا أدرك القلب حقيقـــة الربوبية لله عز وجل ، وعلم الإنسان ذلك ، فإنه يحصـــل علـــى الشـــعور بالابتهاج والسرور الذى بهما يدفع إحساس آلام الكـــرب والـــهم والحـــزن والغم. ثم يذكر لنا قيمة الإحساس بالراحة والهدوء ، بعد إزالة الكرب والهم والغم والحزن ، وأثر ذلك على مستوى حالته الصحية الجسمية والنفســية .

---

(١) سورة الحديد آية (٣) .

(٢) سورة الحديد آية (٣) .

(٣) سورة الأعراف آية (٢٠٠)

(٤)زاد الميعاد جـ (٢) ص (٣٦ : ٣٥)

(٥) زاد الميعاد جـ (٢) ص ص (١٥٣ : ١٥٤)

عندما قال:" إننا نرى المريض إذا ورد عليه ما يسره ويفرحه، ويقوى نفسه، كيف تقوى الطبيعة على دفع المرض الحسى ..." .

وقد أشار إلى أهمية التزام الإنسان بذكر الله سبحانه وتعالى ، وخاصة " ياحى يا قيوم برحمتك أستغيث " على أساس أن صفة "القيومية" متضمنة لجميع صفات الأفعال . الأمر الذى يجعل لها قوة ، فإذا دعا بها العبد أجاب ، وإذا سئل به أعطى . أى أن التوسل بهاتين الصفتين (الحياة والقيومية) لهما تأثير على ما يضاد الحياة ، ويضر الأفعال . فتصبح الحياة سهلة سلسة هادئة مستقرة ، فيحدث بذلك الهدوء والاستقرار النفسى .

كما يذكر "ابن القيم " ما أشار إليه "ابن[١] مسعود" من قيمة القرآن الكريم وأثره فى شفاء ما يصيب الإنسان من هم وغم ، ويؤكد لنا أن الدعاء بالقرآن علاج ناجح بشرط صدق المريض فى استعماله ، فإنه يزيل عنه دائه ،ويترتب عليه إحساس العبد الصادق فى دعائه بالشفاء التام ، والشعور بالصحة والعافية . ويعتمد "ابن مسعود " فى تأكيده هذا على تجربته الخاصة فى استخدام الدعاء بالقرآن الكريم . ويشير إلى أن المسلمين الأوائل كانوا يسعون لمعرفة أسباب ما يصيبهم من الهم والحزن؛ فهذا "أبو[٢] أمامة" يرى أن من أسباب حدوث الهم والحزن ما يحدث فى حياة الإنسان من ظروف وأحوال ماضية توجب له الحزن ، وقد تكون سبب

---

(٢)زاد الميعاد جـ (٣) ص ص (١٥٣ : ١٥٤) .

(٢) زاد الميعاد جـ (٣) ص ص (١٥٥ / ١٥٧).

اصابته بالهم أمر متعلق بالمستقبل يوجب للإنسان إحساسه بالهم .وقد يكون من أسباب حدوث الهم والحزن عدم قدرة الإنسان على تحقيق مصالحه، وشعوره بالعجز ، أو قلة إرادته وإحساسه بالكسل ، أو حبس خيره ونفعه عن نفسه وبنى جنسه ؛فيتولد بذلك عديد من المشاعر والأحاسيس التى تشيع الاضطراب والقلق وعدم الإحساس بالهدوء والاستقرار النفسى - كالجبن ، والبخل وقهر الناس له ...

هذا ؛ كما ذكر أن من أسباب حدوث الحزن والهم ارتكاب المعاصى وشيوع الفساد اللذان يحدثان للإنسان الإحساس بالهم والغم والخوف والحزن . مما يترتب عليه ضيق الصدر واضطراب القلب .

كما يذكر "ابن القيم " أن من بين العوامل الدافعة لزوال الحزن والهم؛ الاستغفار الذى يرفع الهم ويزيل الغم وينقضى الضيق ، والصلاة التى بها تقوى القلوب ، وتنفرج الصدور ، وتنشرح النفس ويتم إحساس الإنسان بالابتهاج . حيث عندما يدخل العبد المؤمن فى صلاته تحدث الصلة بالله ؛ فينعم الإنسان بهذه العلاقة التى تجعله يشعر بالراحة النفسية والابتهاج بمناجاته لخالقه ، حيث لا يشغله فى هذه الحالة إلا ذكر الله الذى به تطمئن القلوب .

ومن أجل ذلك نجد أن "ابن القيم " قد اعتبر الصلاة عاملاً هاماً وأساسيا فى حياة المؤمن . حيث يتحقق بها خيره فى الحياة الدنيا والآخرة فلا يصاب بهمٍ أو بحزن ، أو اضطراب وقلق . فينعم بحياته دون خوف من المستقبل ،ولهذا يرى أن الصلاة قاضية على ما يرتكبه الإنسان من إثم ،

ودافعه لشفاء القلوب ،ومنورة لها ، ومنشطة للجوارح والنفس، وجالبة للرزق ، ودافعة للظلم ، وناصرة للمظلوم ، ومانعة للشهوات ، وحافظة للنعم ، ودافعة للنقم، ومنزلة للرحمة ، وكاشفة للغمة ...

وإذا كانت هذه نتائج إقبال الإنسان المؤمن على الصلاة يؤديها فى خشوع وخضوع لله رب العالمين ، صادقا فى صلته بخالقه سبحانه وتعالى متمنيا وراجيا منه أثناء صلاته العفو والغفران ، وتفريج الكروب . ألا يتم بذلك إحساس الإنسان بالأمن والاطمئنان، والراحة ، والأمان والاستقرار النفسى .

ويعتبر "ابن القيم " أن الجهاد عامل هام من عوامل دفع الهم والغم. ويقصد بالجهاد هنا جهاد النفس التى إذا ما تركت لرغباتها كثر عبسها ، واشتد بطشها فإن ذلك من شأنه أن يزيد همها وغمها وكربها ، ويضاعف خوفها. والأمر يكون على خلاف هذا إذا ما جاهد الإنسان نفسه ، وألزمها بتقوى الله وخوفها منه ، فإن الله يبدل هم الإنسان وحزنه ، فرحا ، ونشاطا، وقوة ، وبذلك يزول همها وغمها وحزنها .

هذا ؛ وقد أشار "ابن القيم " إلى كيفية علاج ما يصيب الإنسان من أرق[١] عندما ذكر شكوة "خالدبن الوليد " - رضى الله عنه مما أرقه – للرسول ﷺ وكان العلاج على لسان رسول الله ﷺ عندما قال :" إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم رب السموات السبع وما أظلت ، ورب الأرض وما أقلت ، ورب الشياطين وما أضلت ، كن لى جارا من شر خلقك كلهم جميعا

---

(١) زاد الميعاد جـ (٣) ص (١٥٧).

أن يفرط عليّ أحد منهم أويبغى ، عز جـارك ، وجـل ثنـاؤك ، ولا إلـه غيرك ".

الصرع وعلاجه : " ولابن القيم " رأى فـي موضـوع الصـرع[١] وعلاجه ؛ فقد صنفه إلى نوعين : أولهما صرع الأرواح الخبيثة ، وبيّـن أن من يقوم بعلاجه أهل العلم من رجال الدين ٠ وثانيهما صرع مـن الأخـلاط الرديئة ، وذكر أن من يقوم به أهل العلم فى مجال الطب كما ذكـر سـبب حدوث الصرع ؛ بأنه يحدث نتيجة تسلط الأرواح الخبيثة والشريرة أو بسبب قلة التدين ، وضعف القلب وخرابه ، وكذلك بسبب اللسان وما ينطق به .

وقد بين أن علاج النوع الأول يكون بقوة النفس - لكل من المريـض والمعالج -وصدق توجه الإنسان المؤمن إلى فاطر هذه الأرواح وبارئـها ، والتعوذ الصحيح الذى تواطأ عليه القلـب واللسـان . أى أن يكـون قلـب الإنسان المؤمن عامراً بالإيمان قوياً بالتوحيد والتوكل ، والتقوى .. حتى إذا أقدم المعالج على عمله وهوعلى هذا النحو من قوة الإيمـان فإنـه يكتفـى بقوله - لتلك الأرواح الخبيثة - اخرج منه ، أو بقولـه : "بسـم الله "، "لا حول ولا قوة إلا بالله "٠ كما ذكر "ابن القيم " أن النبى ﷺ كان يقـول : "اخرج عدو الله أنا رسـول الله ". وكان العلاج يتم بتلاوة أيـة "الكرسـى" و"المعوذتين " .

أما النوع الثانى فيتم علاجه عن طريق أهل العلم من الأطبـاء بمـا لديهم من معلومات علمية ذات ارتباط بمجال الطب . وقد أورد تحديد علـة

---

(١) زاد الميعاد جـ (٣) ص (٩٨)

حدوث هذا النوع صرع – الأخلاط الرديئة – وبين كيفية حدوثه ، ومظـــاهر وجوده .

هذا ؛ وقد أورد"ابن القيم "عدداً من الأسس اللازمة والضرورية لعلاج الصرع منها ؛ مدى قوة النفس وانفعالاتها فى شــــفاء الأمـــراض وصـــدق الإيمان وعمقه لدى المعالج ، والدعاء الخالص لوجه الله، والتوكـــل عليـــه فيما قصد . كما أشار إلى أنه قد جرب ما تقدم من كيفية علاج الصرع وقد أثبتت هذه المحاولات نجاحها .

ومما تقدم من عرض سريع لبعض الدراسات النفسية عند "ابن قيـــم الجوزية " يتضح أنه قد تناول بالدراسة والتوضيـــح كثـــيراً مـــن العوامـــل النفسية التى اهتم بها علماء النفس المعاصرون . حيث تحدث عن النفـــس ومفهومها ، وبيان صفاتها . وتعرض لبيان أنواع النفس البشـــرية . كمـــا تناول كثيراً من المتغيرات أو العوامل النفسية بالبحث والدراسة والبيـــان ؛ كالتفكر والتذكر ، والاغتراب ، والطمأنينة ، والقلق ، والغيرة ، والرضـــا ، والثقة ، والفراسة .

ويعرض أيضا لبيان كثير من العوامل النفسية التى يمكـــن تصنيفـــها تحت عنوان "الانفعالات" ؛ كالحزن ، والفـــرح ، والســـرور ، والشـــوق ، والخشوع ، والوجل ، والإشفاق ، والحياء ، والخوف ، والخشية ، والهيبة.

وذكر لنا بعض المتغيرات التى يمكن تصنيفها تحت عنوان "الدوافـــع"، منها الرهبة ، والرغبة ، والرجاء ، ووضح الفرق بين كل منها وذلك عـــن طريق إظهار الفـــروق الدقيقـــة بيـــن هـــذه المتغيرات الثلاثة . كما تبيـــن

-أيضا- أن "ابن القيم " كانت له وجهة نظر فى تفسير الأحلام .

هذا ؛ وقد تناول موضحا كيفية علاج كثير من الحالات النفسية التى يمكن أن تنتاب الإنسان فى حياته كالوسوسة ، والغضب ، وحالات الكرب والهم والحزن والغم التى قد تصيب الإنسان بسبب ظروف الحياة ومتغيراتها . ثم ذكر أن المسلمين الأوائل كانوا يسعون لمعرفة الأسباب الكامنة وراء ما يصيب الإنسان من الحالات النفسية السابقة الذكر .

وقد بين الوسائل التى يمكن أن تعين الإنسان على التغلب على هذه الحالات وفى مقدمة هذه الوسائل التى يمكن استخدامها للقضاء على الحالات النفسية التى قد تصيب الإنسان فى حياته . كاستخدام الوضوء أو القعود والاضطجاع إذا كان الإنسان واقفا فىحالة الغضب . فضلا عن الإستعاذة بالله من الشيطان الرجيم . مقدما الصلاة والوقوف بين يدى الله كوسيلة هامة وأساسية للخروج من الحالات النفسية التى تنتاب الإنسان .

وذكر كذلك أهمية قراءة القرآن الكريم ، وذكر الله وإدراك القلب لحقيقة الربوبية لله سبحانه وتعالى ، وأثر ذلك كله فى ازالة ما قد ينتاب الإنسان من الهم والكرب والحزن والغم . هذا ؛ ويعتبر "ابن القيم " أن الجهاد من العوامل الأساسية التى تعين الإنسان على دفع الهم والغم الذى قد يصيبه فى حياته . ويبين أن الجهاد الذى يعنيه هو جهاد النفس . موضحا أن الإنسان إذا استطاع أن يجاهد نفسه ويجعلها تدرك تمام الإدراك حقيقة الحياة لاستطاع أن يقضى على ما يلحق به من هم وغم وحزن . بالإضافة إلى بيان كيفية

إزالة ما قد يصيب الإنسان من حـالات الأرق وعـدم النـوم .

هذا ؛ وقد تحدث عن الصرع وأنواعـه ، وكيفيـة التغلـب عليـه ، وما يستطيع أن يأخذ به الإنسـان المسـلم مـن الأسـباب التـى تجعلـه يشفى مما يصيبه من الصرع ، منطلقا فى هذا كلـه مـن وجهـة النظـر الإسـلامية .

المراجع

- ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين جـ (١) ، تحقيق محمد حامد الفقى . مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م
- أبن قيم الجوزية : مدارج السالكين جـ (٢) ، تحقيق محمد حامد الفقى .مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م
- ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين جـ (٣) ، تحقيق محمد حامد الفقى .مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م
- ابن قيم الجوزية : كتاب الأرواح ط (٤) مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن ، الهند : ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م
- ابن قيم الجوزية : زاد الميعاد فى هدى خير العباد ، جـ (٢) مكتبة الحلبى القاهرة : ١٩٧٠ م
- ابن قيم الجوزية : زاد الميعاد فى هدى خير العباد جـ (٣) مكتبة الحلبى القاهرة : ١٩٧٠ م
- ابن قيم الجوزية : طريق الهجرتين وباب السعادتين ، النهضة الإسلامية القاهرة : ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م
- أبو إسماعيل عبد الله الأنصارى الهروى : منازل السائرين ، تحقيق الأب س. دى لو جيه دى بوركى الدومنكى مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة :١٩٦٢ م

المحتويات